حورتي في منديل أحمر

ЧИНГИЗ АЙТМАТОВ

Тополек мой в красной косынке

جنكيز أيتماتوف

حورتي في منديل أحمر

ترجمة

د. ماجد علاء الدين

- حورتي في منديل أحمر.
- تأليف: **جنكيز أيتماتوف.**
- ترجمة: **د. ماجد علاء الدين.**
- الطبعة الأولى 2016.
- عدد النسخ 1000.
- الترقيم الدولي: **ISBN**: 978-9933-18-824-5

جميع الحقوق محفوظة

يطلب الكتاب على العنوان التالي:

دار علاء الدين
للنشر والطباعة والتوزيع
سوريا ـ دمشق ـ جرمانا
هاتف: 00963 11 5617071
فاكس: 00963 11 5613241
ص. ب: 30598 جرمانا
www.zoyaala-addin.com
ala-addin@mail.sy

دار ومؤسسة رسلان
للطباعة والنشر والتوزيع
سوريا ـ دمشق ـ جرمانا
هاتف: 00963 11 5627060
00963 11 5637060
فاكس: 00963 11 5632860
ص. ب: 259 جرمانا
www.darrislan.com
darrislansyria@gmail.com

وفاءً لذكرى
السيدة زويا ميخائيلينكو
لدورها الكبير في مسيرة دار علاء الدين

بدلاً عن المقدمة

اقتضت طبيعة عملي في الصحافة، أن أذهب كثيراً إلى تيان - شان، وذات يوم من أيام الربيع، كنت في مدينة نارين المركزية، إذ جاءني طلب، وعلى جناح السرعة، للحضور فوراً إلى أسرة التحرير. إلا أن ما حدث آنذاك، عرقل وصولي بسرعة، إذ إنني تأخرت لبضعة دقائق عن موعد انطلاق الباص الذي تعودت أن أستقله يومياً إلى مكان العمل. أما موعد الباص التالي الذي سيعقبه سيكون بعد خمس ساعات. وطالما أن الانتظار غير ممكن، أخذت في البحث عن سيارة متجهة إلى تلك المدينة، ولذلك كان علي أن أذهب إلى الطريق العام عند طرف المدينة.

بالقرب من محطة الوقود، كانت تقف سيارة شحن، وإلى جانبها السائق، الذي أخذ يقفل فوهة الخزان، بعد أن قام بالتزود بالوقود، تفاءلت خيراً أن المشكلة ستحل. وخاصة أنه كتب على زجاج حجرة القيادة، إن السيارة خاصة بمصنع ريباتشينسكي. وقلت في نفسي، حسناً، هناك سيهون الأمر وسنجد أكثر من وسيلة نقل إلى فرونزه [1]، فسلمت على السائق وسألته:

---

[1] عاصمة جمهورية قرغيزستان، وكانت تسمى سابقاً قبل عام 1962 بشكيك، وتعتبر مدينة فرونزه مركزاً حضارياً، وثقافياً، وتجارياً، وجغرافياً بين مدن جمهوريات آسيا الوسطى.

- هل ستغادرون الآن؟ أرجو من حضرتكم أن تنقلوني معكم إلى ريباتشي! التفت السائق نحوي. ونظر عبر كتفه، ثم استقام بقامته، وقال بهدوء:

- كلا، يا أكاي [1]، لا أستطيع.

- أرجوك، رجاءً كبيراً! لدي عمل لا يحتمل التأجيل، ومن الضروري أن أسافر إلى فرونزه بسرعة. ومرة أخرى عاد السائق لينظر نحوي متجهماً، ثم يقول:

- أتفهم وضعك جيداً، وعليك ألا تغضب مني يا أكاي، لا أستطيع أن أنقل أحداً معي. استغربت جواب ورفض السائق، فالحجرة إلى جانبه فارغة، وماذا سيكلفه الأمر؟

- إنني صحفي، ومضطر للسفر بسرعة، وسأدفع لك، كما تطلب...

- المسألة ليست في النقود يا أكاي! - قاطعني السائق بحدة، وضرب على العجلة القريبة منه بقدمه. - اليوم لا أستطيع، وسأنقلك معي في مرة قادمة، وبدون أن تدفع شيئاً. أما الآن، فلا أستطيع، ولا تغضب مني، والآن ستجد سيارة ثانية من سياراتنا وستسافر معها، أما أنا فلا أستطيع.

أخذت أفكر بسبب رفضه، ووضعت احتمالاً، ربما سينقل إنساناً آخر، ينتظره على الطريق فقلت له:

- بإمكاني أن أركب في صندوق السيارة. فأجابني مقاطعاً:

- لا أستطيع، على أي حال، وأنا آسف للرفض، سامحني يا أكاي.

نظر السائق إلى ساعته، وخطا مسرعاً.

---

[1] أكاي - (تعني - الأخ الأكبر) - وهي صيغةُ تخاطبٍ وتعبر عن الالتزام والمودة.

حرت في أمري، وحركت كتفي مستغرباً، ونظرت من حولي، فوقع نظري على عاملة محطة النقود، وهي امرأة روسية مسنة، كانت تتابع حوارنا من خلف كوة حجرتها، فخرجت من غرفتها، وهزت رأسها وهي تقول: لا تحنق يا بني! اتركه وشأنه، الآن ستأتي سيارة.

صعد السائق إلى حجرة القيادة على جناح السرعة، ثم وضع سيجارة بين أسنانه، وشغّل المحرك، ثم أشعل سيجارته. كان شاباً في الثلاثين من عمره تقريباً، يظهر بعض التقوس في ظهره لطول قامته. ولقد لفتت يداه انتباهي لضخامتهما فوق المقود، أما عيناه فقد ظهرتا متعبتين من خلف جفونه المنتفخة قليلاً. مسح بكف يده اليمنى فوق وجهه، وقبل أن ينطلق بسيارته، تنفس بحدة، وبشيء من الغرابة والحيطة، وهو ينظر إلى الطريق الجبلي الملتوي.

انطلقت الشاحنة. ثم خرجت عاملة المحطة من حجرتها، واقتربت مني راغبة في أن تخفف من معاناتي، وقالت:

- لا تغضب يا بني منه، فالآن ستسافر.

أما أنا فالتزمت الصمت.

فتابعت هي قائلة: - إنه يعاني من مسألة قلق حادة... قصة طويلة... لقد كان يعيش سابقاً في منطقتنا في محطة النقل هذه...

لم أتمكن من سماع حديث عاملة المحطة حتى الأخير، فسرت على الطريق وفجأة لحقت بي سيارة "بوبيدا" (النصر) فركبتها وانطلقت.

لحقنا بسيارة الشحن، بعد فترة من الزمن، ليست بالقصيرة، هناك عند المضيق، إذ كان يسير بسرعة فائقة، غير مسموح بها في

مثل هذه الأماكن، حتى للسائقين المحليين في منطقة تيان شان، ولم يلجأ نهائياً لتخفيض السرعة عند المنعطفات والمضائق حيث أخذ صوت محركها يرتفع بضجيجه وصخبه عند المضائق، والصخور المعلقة على جانبي الطريق وعند المرتفعات التي كانت تصادفها، كانت السيارة تثب من فوقها ثم تحط بكل ثقلها في المنخفضات، ومن جديد تعود إلى سرعتها منطلقة إلى الأمام، مع الصوت المتزايد لأطراف الشادر على جوانبها، وخاصة عند نهاياته الدنيا، التي كانت تخفق وتضرب جنبات السيارة بضربات متسارعة.

وعلى أية حال فإن سيارة (النصر) قد أثبتت جدارتها، وعندما أخذت سيارتنا تجتاز سيارة الشحن: التفت إلى السائق فيها، محاولاً معرفة عالم هذا الإنسان المخاطر، وإلى أين ينطلق بهذه السرعة، غير مبال؟ في هذه الأثناء، أخذ المطر ينزل بغزارة مع حب البَرَد، وهذا ما يحدث في كثير من الأحيان عند المضائق الجبلية. ومن خلال زخات المطر المائلة، وزخات البرد المتقطعة معها لمحت وجه السائق خلف الزجاج، وكان متجهما شاحباً، يعض على كرتون سيجارة البابيروسا [1]. وهو يمسك بمقود سيارته ويلف المنعطفات بمهارة فائقة، ويداه الكبيرتان تنزلان بسرعة على إطار المقود. ولم يكن أحداً معه لا في حجرة القيادة، ولا في صندوق السيارة.

لم يمض وقت طويل، حتى أرسلت في مهمة، وبعد عودتي من نارين مباشرة إلى جنوب قرغيزستان، إلى منطقة أوشك، وكالعادة لم

[1] البابيروسا - سيجارة روسية يصنع نصفها الخلفي من الكرتون الرقيق، ويبقى فارغاً من التبغ، بينما يصنع نصفها الأمامي من ورق السجائر الرقيق وهو معبأ بالتبغ. وغالباً ما يعض العمال على القسم الخلفي الكرتوني بأسنانهم، وهم يعملون، أو يسوقون السيارات. - (المترجم).

يكن عند صديقنا الصحفي الوقت الكافي، فهرعت راكضاً إلى محطة القطارات قبل مغادرة القطار بثوان، ودخلت إلى الفرغون المجهز بغرف النوم بعد أن تحرك القطار، وأخذ يزيد من سرعته تدريجياً. ولكني لم ألحظ مباشرة ذلك المسافر الذي جلس، وهو ينظر إلى نافذة القطار الزجاجية، فهو لم يلتفت حتى بعد أن أخذ القطار مساره، وبلغ سرعته القصوى.

ومن خلال أجهزة الراديو المثبتة على جدران الفرغونة، كانت تصدح نغمات موسيقية هادئة لآلة الكوموز [1]، وهذه كانت بمثابة الميلوديا القيرغيزية الشعبية، وفيها من الغناء الجماعي الذي يذكرني دائماً بأغاني الخيّال، عندما يكون وحيداً، ويتمتع فوق صهوة جواده بالنسيم الهادئ عند المساء في الحقول الفسيحة، فمن الممكن أن يفكر الإنسان بهدوء، ويغني ما يشاء وبالصوت الذي يرغب به، وخاصة تلك الأغاني التي تلامس نياط القلب والروح. وكم هي كثيرة تلك الأفكار التي تخطر على بال الإنسان، عندما يصبح وحيداً مع ذاته، عندما يكون كل شيء من حوله يبدو هادئاً، ولا يسمع إلا وقع حوافر حصانه، فكانت الأوتار تدندن في نصف قوتها، كخرير الماء فوق الحصى الناعم ذو اللمعة الخاصة في القنوات. كان الكوموز يغني، قريباً سوف تغرب الشمس خلف التلال، وينساب البرد بهدوء فوق الأرض، وهي تهز الحشائش، وتنثر الغبار فوق الشيح ذو البراعم الصفراء على جانبي الطريق. وكان علينا أن نستمع إلى أغاني الخيّال، ونفكر بمعاني كلماته، ونردد ما يقول...

---

[1] الكوموز - آلة موسيقية شعبية في قرغيزستان.

ربما مرَّ ذلك الخيّال، ذات يوم، من هنا، في هذه الأماكن.. ومن الممكن أيضاً، أن شفق الغروب كان يحترق فوق الأصقاع البعيدة، ويخف تدريجياً حتى يصبح بلون القش الأصفر، أما الثلج فوق الجبال، كان آنذاك، كما هو الآن، يستقبل إشعاعات الشمس الأخيرة حتى أخذ لون الزهر لبرهة، ثم خمد لونه بسرعة.

ومن خلف النافذة، كانت تتعاقب الحدائق، وأشجار الكرمة، وحقول الذرة الخضراء الداكنة، وبمحاذاتنا كانت تسرع عربة يجرها حصانان، وهي مملوءة بالفصفصة الطازجة. توقفت عند إشارة السكة الحديدية وكان يقودها ولد صبغته الشمس بلون أسمر برونزي، وهو يرتدي قميصاً عتيقاً ممزقاً، وبنطالاً، قام بثني طرفيه السفليين إلى ما فوق ركبتيه، أخذ يراقب فرغونات القطار المارة من أمام عربته ويبتسم ويلوح بيده لشخص ما.

كانت الميلوديا تنسجم أكثر وأكثر مع صوت القطار وموسيقاه الإيقاعية. وبدلاً من صوت وقع حوافر الأحصنة، كانت عجلات القطار تطرق السكة بضربات متلاحقة. أما جاري فقد تابع الجلوس عند النافذة، متكئاً على يده. وبدا لي وكأنه، يغني صامتاً هذه الأغنية للخيال الوحيد في البراري. لم أعرف، هل كان حزيناً، أم كان يحلم، ولكن في خفايا ملامحه كان هناك لهب كئيب لم تخمد ناره بعد. وها هو يغوص في أعماق ذاته لدرجة كبيرة، حتى لم يحس بوجودي في السيارة التي تجتازه. حاولت التحديق إليه لأتذكر أين التقيت بهذا الإنسان؟ حتى يداه معروفتان بالنسبة لي، سمراوتان مع كل الأصابع القاسية الطويلة.

وهنا تذكرت: إنه ذلك السائق، الذي لم يأخذني معه في السيارة. وهنا استقر تفكيري أخرجت كتاباً. وفكرت: هل من الضروري أن أعرفه بنفسي؟ إنه، ومن المحتمل قد نسي وجهي. فكم يلتقي الإنسان بشراً كل يوم، وخاصة بالنسبة للسائقين؟

وهكذا قطعنا مسافة من الطريق، وكل إنسان، مع ذاته، ومن خلف النافذة عمت الظلمة. آنذاك قرر جاري في الحجرة أن يدخن سيجارة. فأخرج البابيروسا. وتنفس بصعوبة، قبل أن يكسر جدار الصمت مع جاره. ثم رفع رأسه، ونظر نحوي باستغراب، وفوراً، احمر وجهه خجلاً بعد أن عرفني، وقال مبتسماً مع شيء من الاعتذار:

- مرحباً يا أكاي!

مددت يدي له مصافحاً؛ وسألته:

- هل تنوون السفر إلى مكان بعيد؟

- نعم... إلى مكان بعيد من هنا! - قال هو بهدوء ونفث الدخان من فمه، وصمت، ثم قال: - إنني متجه إلى باميز [1].

- إلى باميز! هذا يعني، أن طريقنا سيكون مشترك حتى أصل إلى أوش... هل ترغبون في قضاء مأذونيتكم هنا؟ أو تحاولون تغيير مكان العمل؟

- نعم، شيء من هذا القبيل... هل ترغبون بالتدخين؟

أخذنا ندخن سوية بصمت. وبدا الأمر، وكأنه لا يوجد شيء مشترك للحديث عنه. وعاد جاري ليغوص في أعماقه، فجلس مطأطئ الرأس حتى أصبح رأسه يتجاوب بحركاته مع حركات القطار. وبدا لي أنه تغير كثيراً خلال الفترة التي مرت على لقائي به. لقد نحف

[1] باميز - منطقة جبلية في آسيا الوسطى يقع جزء منها في قرغيزستان.

وجهه، وبرزت وجنتاه، وبرزت ثلاث تجعيدات ثقيلة وعميقة فوق جبهته، وفوق وجهه انتشر ظل كئيب لحاجبيه، اللذين امتدا حتى رموش عينيه. وفجأة، ضحك رفيق دربي بصوت، لا يدل على المرح وسألني:

- ربما، اغتظتم مني، في المرة السابقة للقائنا، أليس كذلك يا أكاي؟

- متى كان لقاءنا السابق، فأنا لا أذكر شيئاً؟ - إنني تجاهلت الحقيقة لأنني لم أرغب في أن أحشر الرجل في زاوية محرجة. ولكنه نظر نحوي بود، ومع شعور بالندم، حتى لم يعد بإمكاني إلا أن أعترف باللقاء السابق:

- أ... أ.. تقصد ذلك اللقاء.. مسألة عادية، ولا أهمية لها، غالباً ما يجد الإنسان في الطريق، خلال السفر، وأنتم، ما زلتم تذكرون ذلك اللقاء؟

- لو كان الأمر في يوم آخر، ربما كنت قد نسيت الأمر كله، ولكن في ذلك اليوم، كان من الصعب نسيان الأمور...

- وماذا حدث لكم؟ عسى ألا يكون حادث سير؟

- نعم، كيف لي أن أقول لكم، فلم يكن هناك من حادث سير، ولكن حصل شيء آخر... - قال هو، وهو يفتش عن كلمات مناسبة، ثم ضحك، متصنعاً الضحك بصعوبة. - كان بإمكاني أن أنقلكم، إلى حيثما شئتم على السيارة، ولكني الآن، وكما ترون، أنا شخصياً أسافر في القطار...

- لا بأس، إن الحصان، يدق الأرض بحوافره آلاف المرات وهو يسلك طريقه المعتاد، وربما نلتقي مرة أخرى في زمن لاحق...

هزّ المسافر برأسه بامتعاظ، وقال: - بالطبع، لو التقينا مرة أخرى، فأنا سأجبرك على الركوب معي في حجرة القيادة!

- هذا يعني أننا اتفقنا؟ - قلت مازحاً.

- أعدك بهذا يا أكاي! - أجاب بمزاج حسن.

- ولكن، ما وراء ذلك السبب، الذي منعكم من نقلي معكم في تلك المرة؟

- تسألني لماذا؟ - ردَّ هو بسرعة، ثم عاد إلى اكتئابه. صمت، ونظر بعينيه إلى الأرض، وهرع إلى البابيروسا، وسحب الدخان منها ثم نفثه بحدة، وأدركت لحظتها، أنه، لا يجوز أن يذكر بما لا يرغب به، وأن أوجه له سؤالاً حول الأمر. لقد حرت في أمري، ولم أعرف كيف لي أن أصلح خطئي. أطفأ السيجارة في منفضة السجائر، وأخذ يستدعي الكلمات من صدره بصعوبة:

- لم أتمكن... كنت أسرع إلى ابني... إنه كان ينتظرني آنذاك...

- ابنك؟ - سألته باستغراب.

- هكذا كان الأمر... هل تفهمون ما أقصد؟... كيف لي أن أشرح لكم... أخرج سيجارة أخرى وأشعلها، حتى يطرد الارتباك والقلق، وعاد لينظر لوجهي بجدية وأخذ يتحدث عن نفسه.

وهكذا تمكنت من سماع قصة السائق.

كان لدينا كثيراً من الوقت. فالقطار مسافر حتى «أوش» ويلزمنا بهذا يومان كاملان. ولذلك قررت ألا ألح عليه بالأسئلة: وهذا شيء جيد، عندما يبدأ الإنسان بالحديث من ذاته ويستعيد المعاناة، والتفكير من جديد، ويلتزم الصمت عند منتصف الكلمة، التي لا

يجوز له لفظها حتى الأخير. وتلزمني جهود كثيرة، وضغط نفسي، حتى لا أتدخل مقاطعاً حديثه الوصفي، لأنني، وبطبيعة عملي، وكثرة الحركة كصحفي، كنت أعرف عن هذا الإنسان وعن الأشخاص الذين جُمِعَ قدر هذا السائق معهم. كان بإمكاني أن أكمل حديثه وأغنيه، وأن أشرح بعض القضايا، ولكنني قررت أن أقوم بهذا بعد أن أستمع لحديثه حتى النهاية. ولكنني أحجمت عن هذا فيما بعد وأعتقد أنني تصرفت بشكل صحيح، وأدعوكم لسماع أحاديث الأبطال أنفسهم في هذه الحكاية.

قصة السائق

... ابتدأ كل هذا بصورة مفاجئة. ففي تلك الفترة، كنت قد عدت لتوي من الحرب [1]. ولقد أمضيت خدمتي في مصنع قطع المحركات، وقبل ذلك، أنهيت المدرسة عشرة صفوف [2]، وعملت سائقاً أيضاً. وأنا تربيت في صغري في بيت الأطفال [3]. أما صديقي علي بيك جانتورين تسرَّح من الجيش قبلي بعام. وأخذ يعمل في مصنع ريباتشينسكي للسيارات. ولهذا ذهبت إليه فوراً بعد تسريحي. وكنت أحلم مع صديقي علي بيك أن نعيش ونعمل في تيان شان، أو في بامير. وهناك استقبلوني بصورة جيدة، وأسكنوني في سكن العمال. وكنا نقوم بتصنيع سيارات زيل وإصلاحها، حتى تخرج من تحت أيدينا وكأنها جديدة كلياً.. وعليَّ أن أقول، أنني كنت أحب سيارتي حباً كبيراً، كما يحب الإنسان. وحافظت عليها، وكانت دفعتها من خيرة الدفعات التي أنتجها المصنع ومحركها قوي للغاية. حقاً، يجب القول، أننا لم نكت نضع فيها الحمولة اللازمة دائماً فوضع الطرق في منطقتنا ليس جيداً، فكم هي صعبة في منطقة تيان - شان! وخاصة

---

[1] المقصود بالحرب هنا - الحرب العالمية الثانية، التي انتهت في 9 أيار 1945. - (المترجم).

[2] تنتهي المرحلة الثانوية في التعليم، أثناء فترة الاتحاد السوفيتي وحتى الوقت الحاضر، بعد عشرة سنوات من الدراسة الابتدائية والإعدادية والثانوية، ويحصل الطالب على شهادة التعليم الثانوي.

[3] يربى في بيت الأطفال عادة الأيتام نتيجة وفاة الوالدين، وكثرت هذه البيوت للأيتام والمشردين خاصة في أيام الحرب، وبعد استشهاد أكثر من عشرين مليون في الاتحاد السوفيتي. - (المترجم).

في المناطق الجبلية العالية التي تعد من أعلى الطرق في العالم. فهناك السلاسل الجبلية والمنحدرات والوديان والوهاد وعلى الرغم من كثرة الينابيع والمياه في الجبال كنا نضطر أن نأخذ الماء معنا. وربما قد لاحظتم وجود الخزان في الزاوية الأمامية والمثبت إلى المقص، وذلك لتعبئة الاحتياطي من الماء، لأن المحرك كانت ترتفع درجة حرارته بسرعة في الطرق الجبلية. وحتى لو كان الحمل خفيفاً. فأنا في البداية فكرت، ما الحل الأفضل للعمل؟ وأوجعت رأسي بالتفكير، كيف لنا أن نزيد الحِمل أكثر، ولكن لم نتمكن من تغيير أي شيء، فالجبال هي الجبال.

كنت مسروراً، وراضياً عن عملي، والأماكن كانت تعجبني للغاية، ومحطة السيارات، كانت على ضفة بحيرة إيسك كول المعروفة. وعندما كان يأتي إلينا السواح الأجانب، كانوا يذهلون لسحر الجمال وشفافية الأماكن وتناغم الجبال مع السهول حول البحيرة، وكنت أفتخر في قرارة نفسي: يا لهذه الهدية الإلهية الرائعة التي أهدانا إياها الله - إيسك كول! ولو دُرْتُ العالم لما وجدت لها مثيلاً...

وفي الأيام الأولى، اصطدمت بمسألة أزعجتني جداً. كان الوقت ساخناً في الربيع، إذ استنفرت الكولخوزات بعد مؤتمر أيلول، وصَعدّت من نشاطها. وشدّوا الهمم لإنجاز العمل. ولكن الآليات كانت قليلة. فقسم من سياراتنا التي ينتجها المصنع، كانت تتجه على الفور لمساعدة الكولخوزات وخاصة أولئك الجدد، إذ كانوا يرسلونهم إلى مختلف الجهات. وأنا أيضاً، مجرد أن أنهي مهمتي، يتم إرسالي إلى مهمة أخرى إلى القرى البعيدة. وكنت مدركاً أن هذا العمل ذو أهمية خاصة بعد الحرب. ولكن السائق كان يحترق خوفاً

على سيارته في الطرق الوعرة والقاسية. التي كانت تهز أركان السائق، وتقضي على السيارة تكنولوجيا، وأنا ذات مرة، ذهبت في مهمة إلى القرى التي من الصعب أن تتخيل طرقاتها حتى في المنام...

وهكذا، أرسلت في مهمة إلى أحد الكولخوزات، وكانت حمولة السيارة من الأترنيك لأسقف مجمع تربية الأبقار، وكانت هذه القرية في أسفل الجبل، والطريق إليها عبر السهوب، في البداية كان الأمر عادياً، ثم أخذ الطريق يسوء ويسوء، ولم يبق للقرية إلا مسافة بسيطة، وفجأة غرقت عجلات السيارة في الطين بالقرب من بعض القنوات التي كانت تسرب المياه، وتخرب الطريق من حولها منذ أيام الربيع. وأخذت العجلات تدور في مكانها، وأصبحت ملساء من الطين ولو كان هناك جمل واحد لساعدنا في الخروج من المأزق، ولكننا لم نجد، وقمت بالكثير من المحاولات ولكن بدون جدوى، وكانت السيارة تغرق أكثر في مكانها، زد على ذلك، كربج مقود السيارة وكنت مضطراً أن أنزل تحت السيارة لإصلاحه.. حاولت مطولاً، وتلطخت كلياً بالوحل، والعرق يتصبب، وأنا أشتم وأشتم هذه الطرق اللعينة. سمعت صوتاً بشرياً قادماً من الجهة الأخرى ولم أر من تحت السيارة إلا الجزمة المطاطية التي يرتديها. اقتربت هذه الجزمة، وتوقفت بجانبي، فملأ الشر نفسي - من هذا القادم، ولماذا لم يسلم، فوقف ينظر، هل عندي سيرك؟ - أرجوك تابع طريقك، لا تقف على روحي! - صرخت به من تحت السيارة، وعندها لاحظت من فوق الجزمة طرف فستان نسائي عتيق جداً، ملطخاً بفضلات البقر والأغنام، يبدو أن هذه العجوز تنتظر حتى أقلها معي إلى القرية.

- تابعي طريقك، أيتها الجدة! - طلبت منها. - فأنا سأبقى هنا تحت هذا الحمّام الشمسي طويلاً.

أما هي، فوقفت مستقيمة وقالت:

- أنا لست جدة ولا عجوز. - قالت بصيغة ما وضحكت.

- ومن أنت؟ - سألتها باستغراب.

- فتاة.

- فتاة؟ - حدقت في جزمتها، وسألتها من باب المشاكسة:

- حقاً إنك فتاة وجميلة أيضاً، أليس كذلك؟

- كانت الجزمة تراوح في مكانها، ثم انتقلت جانباً، وحاولت الانصراف، عند ذلك خرجت من تحت السيارة بسرعة. نظرت، فوجدت في واقع الأمر، أنها فتاة رشيقة ذات وجه بشوش وحاجبين جميلين عابسين قليلاً، في منديل أحمر، وترتدي جاكيت أبيها الفضفاض فوق كتفيها بحياء أنثوي شفاف نظرت نحوي بصمت، فنسيت كل ما ألم بي من عذاب، وأنني كنت قبل ثوان تحت السيارة، فوق الأرض الطينية، وكنت ملطخاً بالطين والوحل.

- لا بأس! أيتها الجميلة، - ابتسمت ضاحكاً. وهي في حقيقة الأمر كانت جميلة. - ولو كانت تحتذي كندرة لبدت في صورة أخرى! - أخذت ألاطفها وأنا أخرج من تحت السيارة. استدارت الفتاة فجأة، وبدون أن تنظر نحوي، أسرعت للمغادرة في طريقها. ماذا حل بها؟ هل غضبت مني؟ لقد غضبت من نفسي. أسرعت للحاق بها على جناح السرعة، ثم عدت، وجمعت الأدوات، وصعدت إلى حجرة القيادة، وأخذت أفكر، حبذا لو ألحق بها، وأخذت أضغط على المحرك إلى الأمام، ثم إلى الخلف، وأخذت أدفع بالسيارة كيفما شئت، ولم أفكر بشيء آخر. اشتغل المحرك، وانطلقت السيارة ولم ألتفت إلى الخلف نهائياً. أما هي فقد كانت تبتعد وتبتعد عني. صرخت، ولم أعلم، كيف ومن أنادي، والعجلات تنزلق يميناً ويساراً.

- اتركني! اتركني! أقول لك. ألا تسمع كلامي؟!

ضجّ المحرك بكل قوته، أما السيارة فقد انزلقت مع صرير صارخ، وبأعجوبة نادرة، انطلقت من حالة الاهتزاز والمراوحة في المكان. كم كانت فرصتي كبيرة! وخرجت إلى الطريق. مسحت الوحل عن وجهي بمنديل، سرحت شعري بأصابعي. وعندما أصبحت بمحاذاتها، أوقفت السيارة، والشيطان وحده يعلم من أين ظهرت عندي تلك الشجاعة، وفتحت الباب من جهتها على مصراعيه، ودعوتها للجلوس في الحجرة:

- تفضلي! - ومددت يدي لها وأنا أدعوها للجلوس في الحجرة.

أما الفتاة فلم تتوقف، واستمرت في المسير كما كانت. انظر إليها باستغراب، يا لها من عنيدة! ولكن لم يبق عندي أي عقل. فلقد لحقت بها ثانية، واعتذرت في هذه المرة، وطلبت:

- أرجوك ألا تغضبي مني! فأنا لم أقصد شيئاً... اجلسي، تفضلي!

ولكن الفتاة لم تجب بشيء.

عند ذلك سبقتها إلى الأمام، وأوقفت السيارة في طريقها، وخرجت من الحجرة، وهرعت راكضاً من الجهة اليمنى، فتحت الباب، ووقفت أمامها، دون أن أبعد يداي، فاقتربت محترزة، وهي تنظر نحوي: يا لك من شاب! أما أنا فلم أقل شيئاً، وكنت أنتظر ما ستفعل. ربما أشفقت على حالي، أو لسبب آخر - هزت برأسها، وجلست في حجرة السيارة.

أشغلت المحرك، واندفعت العربة بهدوء.

لم أعرف، كيف لي أن أبدأ الحديث معها، وليست هذه المرة

الأولى التي أتعرف فيها إلى فتيات، ولكن في هذه المرة تفاجأت من جلوس فتاة جميلة بجانبي وحرت في أمري كيف سأتصرف معها وكيف لي أن أبدأ الحديث معها؟ كنت أدير مقود السيارة بعفوية، وأسرق النظر خطفاً إليها. وعلى رقبتها انسابت خصلة شعر من شعرها الناعم إلى الأسفل. أما الجاكيت الواسع فقد نزل عن كتفها، فأوقفت نزوله بمرفقها.. أما هي فقد ابتعدت عني، وكانت خائفة أن يلامس جسمها جسمي. وعيناها تنظران نحوي بحذر وقوة، وبشكل عام كانت حركاتها لطيفة. ووجهها بشوش وناعم، تريد أن تقطب حاجبيها، ولكنهما يرفضان الكدر، أخيراً نظرت بحذر نحوي، والتقت نظرات عينيها مع نظرة متأملة مني ساعتئذٍ قررت أن أتحدث إليها وسألتها:

- لماذا قررتِ أن تتوقفي، هناك عند السيارة؟

فأجابت الفتاة برزانة: - أردت أن أساعدكم.

- أردتِ مساعدتي؟ - ضحكت بارتياح - وفي واقع الأمر لقد قمت بمساعدتي! فلو لم تحضري لبقيت في ذلك المكان حتى المساء!... وهل لك أن سرتِ في هذا الطريق مرات عديدة؟

- نعم، أعمل في شركة النسيج. وهنا سررت لإجابتها وقلت لها بهدوء:

- هذا شيء جيد!

تحسن وضعي نسبياً وأصبح الطريق جيداً أمامي- ولكنني اصطدمت في مطب وكأنني فعلت هذا عن قصد مما أدى إلى اصطدام كتفينا، فضحكت، وكنت عاجزاً عن منع حصول قهقهة عالية. ولقد اعترفت لها ضاحكاً:

- أما أنا فلم أكن أرغب بالسفر إلى الكولخوز - ولو عرفت، أنني سأجد مساعدة لي في الطريق، لما تشاجرت مع مدير المحطة... وهو يصرخ باسمي: إيه، إلياس، إلياس! ولعاقبت نفسي بالخصام معه. توقفت لثوان معدودة وقلت موضحاً: - هكذا ينادونني باسمي في العمل.

- أما أنا، فاسمي آسيل...

وصلنا إلى القرية، وأصبح الطريق جيداً، ومستوياً، وكان النسيم يزداد تدريجياً عبر نافذة زجاج حجرة السيارة، الذي نزع المنديل عن رأس آسيل، وداعب خصيلات شعرها الناعم... التزمنا الصمت قليلاً. أخذنا نشعر بأريحية. وأظن، كما يبدو، أنه من السهل. والمريح للروح، إذا كان إلى جانب الإنسان شخص آخر، حتى لو أنه نادراً ما يلامسه بمرفقه، والذي قبل ساعة لم يكن يعرف عنه شيئاً. أما الآن، يصبح وبالتدريج يحتل مركزاً هاماً في تفكيرك، ولا تريد أن تفكر بغيره.. لا أعلم ماذا كان في قلب آسيل، ولكن عيناها، كانتا تشعان بابتسامة جميلة، وتمنيت لو أسافر، وأسافر بعيداً حتى لا أفترق عنها.. ولكن السيارة أصبحت تسير في شارع القرية الرئيس. فجأة ارتعدت آسيل خائفة، وقالت على عجل:

- توقف، سأنزل هنا!

أوقفت السيارة وسألتها: - هنا تعيشين؟

- كلا. - ولا أعلم، لماذا كانت خائفة، وقلقة جداً، وأضافت:

- لكن من الأفضل أن أنزل هنا.

- لماذا هنا؟ سأوصلك إلى البيت مباشرة! - ولم أعطها فرصة للاعتراض، وتابعت السير.

- هكذا وصلنا، - قالت آسيل بهدوء - شكراً!

- عفواً! - قلت مجيباً، وأضفت قائلاً، ليس من أجل الطرفة، بل من أجل الحقيقة الجادة: - إذا قدمت غداً، وغرقت السيارة معي في نفس المكان، هل تأتي لمساعدتي؟

لم تتمكن من إجابتي. إذ شاهدت البوابة تفتح، وتخرج منها إلى الشارع امرأة مسنة، ويبدو عليها القلق الجاد.

- أين كنت يا آسيل؟ - صرخت المرأة. - وإلى أين ذهبت؟ فليعاقبك الله! اذهبي، وغيري ثيابك بسرعة، لقد جاء الناس الذين يريدون طلب يدك! وأضافت شيئاً ما، هامسة، وهي تضع يدها على فمها حتى لا تبوح بسر ما.

خجلت آسيل، وارتبكت، حتى وقع الجاكيت عن كتفيها، ثم رفعته، وسارت بخشوع وأدب خلف أمها، وعند المدخل، التفتت نحوي، ولكن البوابة قد أغلقت على الفور. ولاحظت أن عدة خيول قد ربطت في الشارع في مربط الخيل، وكان العرق المتصبب قبل دقائق، أخذ يجف قليلاً. وكما يبدو، أن الخيول قادمة من أماكن بعيدة. استندت إلى المقود، ورفعت نفسي قليلاً، فشاهدت في ساحة البيت، وخلف الجدار الطيني، وحول الموقد، كانت مجموعة من النساء يتحدثن فيما بينهن، وكان الدخان يرتفع من السماوار [1] النحاسي الكبير. وثمة رجلان يسلخان خروفاً، بعد أن علقاه إلى حامل. وكان الاستقبال للخطاب يتم هنا كما يجب، ولم يبق لي أن أفعل شيئاً، لقد كان علي أن أذهب إلى موقع البناء لتفريغ الشحنة من الأترنيك.

---

[1] السماوار أو بالروسية (Samovar) - وعاء للتدفئة وغلي الماء لعمل الشاي في روسيا وفي المنتصف توجد أنبوبة يوضع فيها الجمر المتقد ويتكوّن من أسطوانة كبيرة يوضع بها الماء الذي يخرج من صنابير في الجوانب.

عدت في آخر اليوم إلى محطة السيارات، نظفت السيارة، ووضعتها في الكراج. عملت مطولاً، وكل شخص وجد لنفسه عملاً ما. ورغم المشاغل، كان يسيطر على تفكيري، ولسبب ما، ذلك اللقاء الذي حصل بيني، وبين آسيل اليوم. كنت أشتم نفسي طيلة الطريق: «ما الذي يلزمك؟ يا لك من مجنون؟ ومن هي بالنسبة لك في نهاية المطاف! هل هي عروس؟ أخت؟ بكل بساطة، التقيت معها مصادفة في الطريق، أوصلتها إلى البيت وها أنت أصبحت تعاني وكأنك أقسمت لها بالحب، وربما لا تريد هي أن تفكر بك مطلقاً. وهل أنت مهم لها جداً! لديها عريس قانوني حسب الأصول أما أنت فمن، لا أحد! سائق غريب على الطريق، فمئات السائقين، بل الآلاف ولا يمكنك أن تتعارف مع الجميع وتحبهم.. وأي حق تملك، وما لديك من حسابات مستقبلية الآن مراسم الخطوبة تتم، والعرس سيكون قريباً، وأنت ما دخلك في الأمر؟ ابصق على هذه المسألة وحافظ على سيارتك، وأمسك المقود جيداً»...

ولكن المصيبة، كانت تنحصر في أنني، ومهما حاولت إقناع نفسي، لم أتمكن من نسيان آسيل. لم يبق لي أن أعمل شيئاً بالقرب من السيارة. وهل لي أن أذهب الآن إلى المسكن، فهناك لا يشعر الإنسان بالملل، وهو مجتمع مرح، وصاخب، وتوجد صالة اجتماعية، ولكني كنت أقول: لا، لكل هذا، أريد أن أبقى لوحدي، اضطجعت قرب السيارة، واضعاً يدي تحت رأسي. وقريباً مني كان يغتسل جانتاي إلى جانب السيارة، وكان سائقاً مشاكساً، خرج من الحفرة، وقال ساخراً:

- بماذا يحلم الفارس؟

- أحلم بالفلوس! - أجبت بشيء من الحدة والغضب.

لم أكن أحبه، فهو بخيل، من الدرجة الأولى، مخادع، وحسود، ولم يعش في السكن الجماعي لعمال المصنع كالآخرين. بل كان يقطن عند امرأة، في شقتها، ويتحدث الناس، أنه وعدها بالزواج، وبهذا سيملك بيتاً بعد أن يتزوجها.

استدرت بعيداً عنه. وفي الساحة، بالقرب من المغسلة، قام الشباب العاملون معنا باللعب الصاخب. إذ صعد واحد من الشباب إلى حجرة قيادة سيارة الإطفاء وفتح صنبور المضخة بقوة على السائقين الواقفين في الصف. واعتلى الضحك في كل محطة السيارات، فضغط المياه عندما يسقط على أحد الواقفين يجعله يترنح في مكانه. حاول البعض أن يسحبوا الشاب من فوق حجرة القيادة، ولكنه أخذ يدافع عن نفسه، ويتعلق بظهورهم من واحد لآخر، ويرسل الماء قوياً إلى ظهورهم، وكأنه من رشاش، ويضرب بقبعته، وفجأة انطلق رشاش الماء إلى الأعلى، وأخذت تتناثر في وجه أشعة الشمس، وتكون من الرذاذ ما يشبه قوس قزح. أخذت أنظر، حيث أخذ الماء المتصبب، ينزل على كاديتشا، مديرة المحطة. وهذه الإنسانة لا تهرب. فهي دائماً تصمد وبكل ثقة ومقدرة. وعُرِفَتْ بقوة إرادتها، فهي تكره التزلف والأخطاء العبثية، وها هي تقف الآن بلا خوف، وبكل هدوء. ولا يقدر أحد على خداعها، أو النيل من صمودها. ويخاف الشخص الذي يحاول أن يمسها بسوء أن يقترب منها! وضعت رجلها في الجزمة، وأخذت تشمل شعرها بملقط، أمسكته أولاً بأسنانها، ثم جمعت شعرها به، وهي تضحك. ومن حولها كانت تتطاير ذرات الماء الفضية، وقسم منها يسقط فوق رأسها، والشباب يضحكون، ويتحرشون بالشاب فوق الحجرة طالبين منه:

- أعطها الضربة القاضية على الصندوق!

- ارمها بسرعة! - صرخ البعض. بينما صرخ الآخرون:

- اصمدي، يا كاديتشا!

ولكن الشاب لم يجرؤ، أن يصب الماء عليها، واكتفى أن يرش الماء مداعباً من حولها، ولو كنت مكانه، لكنت قد غمرتها بالماء من رأسها حتى أخمص قدميها، وحسب اعتقادي، لم تقل لي كاديتشا أية كلمة سيئة، واكتفت بالضحك، وينتهي الأمر، وكنت ألاحظ، أنها تعاملني معاملة خاصة، وليس كما كانت تعامل الآخرين، وأصبحت لينة، ودمثة الأخلاق معي، وتبدو عصبية أحياناً. كانت تسرها معاكستي لها من باب الطرفة، وكنت أمسح على رأسها. وكان يعجبني فيها أنها تحب النقاش والإقناع، لدرجة أن الأمور كانت تصل إلى درجة الحدة بيننا، ولكنها في النهاية كانت توافق معي، حتى لو لم أكن على حق. وأحياناً كنت أرافقها إلى السينما، وأنا في طريقي إلى السكن. وكنت أدخل إلى غرفة الإدارة، بلا موعد أو إذن مسبق بينما كانت تسمح للآخرين بمخاطبتها من خلال نافذة حجرتها، المطلة على الساحة فقط.

أما الآن، فليس لدي الكثير من الوقت حتى أفكر بها. دعها الآن تلعب قليلاً. وغرست الملقط الأخير في شعرها.

وأمرت المدير بحدة:

- لعبنا وكفى الأمر!

- سمعاً وطاعة، أيتها الرفيقة المديرة! - وقف الشاب فوق حجرة سيارة الإطفاء باستعداد وقدم تحية، ضارباً برجله على سقف الحجرة. وهنا هجم عليه الآخرون، وسحبوه من الأعلى إلى الأرض، أما هي فقد

اتجهت، إلينا في الكراج، وتوقفت عند سيارة جانتاي، وكما اتضح، كانت تبحث عن شخص ما، وهي لم تراني فوراً، وأنا أجلس خلف الشبكة، التي تفصل الكراج إلى أقسام، نظر جانتاي من الحفرة، وقال، وهو يبحث عن شيء:

- مرحباً، أيتها الحسناء!

- آ، جانتاي...

أخذ ينظر بوقاحة إلى ساقيها، أما هي فقد حركت كتفيها بحركة عبرت فيها عن عدم رضاها:

- ماذا، حلّ بك حتى أجحظتِ عينيك؟ وغرستِ عتلة الجزمة بهدوء في ذقنه.

لو فعلت هذا، مع أي إنسان آخر لاغتاظ. أما هذا، فلا، بل أشرق وابتسم، وكأنها قبلته، وغطس في البركة.

رأتني كاديتشا، فقالت:

- حسناً تستريح يا إلياس؟ فأجبتها:

- نعم، وكأنني على فراش من ريش!

اقتربت من الشبكة، حتى لامست خيوطها بوجهها، وحدقت بالنظر نحوي، ثم قالت:

- تعال إلى غرفة الإدارة.

- حسناً، الآن.

خرجت كاديتشا، ونهضتُ من مكاني، وجهزتُ نفسي للذهاب إليها. أما جانتاي فقد خرج من الحفرة مرة ثانية، وقال بوقاحة: - يا لها من امرأة حسناء! - فأجبته بسخرية:

- ولكنك لا تصلح لها، ولست في قدر مقامها!

اعتقدت أنه سيغضب، ويفتعل مشاجرة معي. فأنا لا أحب المشاجرات، ولكنني كنت أنتظر العراك مع جانتاي منذ زمن بعيد: إنه كان ثقيلاً على روحي، ولم أطق وجوده وأكره التحدث إليه، أو حتى إجابته عن سؤال ما. أما هو فلم يغضب نهائياً، وقال:

- لا بأس! سنعيش - ونرى... وفي غرفة الإدارة لم يكن أحد ما، وما وراء هذه الشيطانة؟ فإلى أين اختفت؟ استدرت إلى الخلف، فاصطدمت بصدري مع كاديتشا. كانت تقف، وهي تستند بظهرها على الباب، مطأطئة الرأس أما عيناها، فقد كانت تشعان من بين رموشها الطويلة، وأنفاسها الحارة وصلت إلى وجهي دافئة، فلم أعد أتمالك نفسي، واندفعت نحوها، ولكنني تراجعت فوراً إلى الخلف. يا للغرابة! لقد اصطدمت بشعور الخيانة الكبرى لحب آسيل، فسألتها بلا رضا:

- لماذا طلبت مني الحضور؟

أما كاديتشا، فقد وقفت صامتة، تنظر إليّ بعينين مشعتين.

- لماذا لا تجيبي؟ - كررت سؤالي، وقد فقدت الصبر.

- ماذا حلّ بك، تبدو جافاً للغاية! - قالت هي، وفي صوتها شيء من الحسرة. - أَوَ تعرفت إلى إنسانة أخرى فأخذت كل اهتمامك؟...

حرت في أمري، لماذا تتكلم معي بهذه الصيغة، وكأنها توجه لي التهم؟ ومن أين عرفت؟

في هذه اللحظة، فتحت النافذة، وظهر رأس جانتاي، وقد تاهت الابتسامة، محتارة، إلى أين تذهب عبر وجهه.

- أرجوك، أيتها الرفيقة المديرة! مدّ يده من النافذة، وفيها ورقة، يقدمها إلى كاديتشا وفي صوته شيء من المكر والتصنع.

نظرت كاديتشا إليه نظرةً ملؤها الحقد والكراهية. وبشيء من الحسرة، نظرت إلى وجهي، وقالت:

- ومن سيستلم المهمة بدلاً عنك؟ أَوَ تنتظر دعوة خاصة؟

أبعدتني كاديتشا بيدها جانباً، ومشت لتأخذ مكانها خلف الطاولة، ثم قالت:

- خُذ هذه! - وقدمت لي استمارة المهمة.

أخذت ورقة المهمة، التي كانت إلى نفس الكولخور ثانية؟ ومن جديد لنقل الآجر، والأحمال الثقيلة؟ لا، لن أذهب! وقذفت ورقة المهمة على الطاولة. - يكفيني، طيلة اليوم في الوحل، فليذهب الآخرون!...

- لا تصرخ، ولا ترفع صوتك، المهمة عندك لأسبوع! وإذا لزم الأمر، سوف نمدد الفترة. - قالت كاديتشا غاضبة.

عند ذلك، قلت بهدوء: - كلا، لن أذهب!

وكما كان في كل مرة، عادت كاديتشا لهدوئها، ووافقت على الفور:

- حسناً. سأتكلم مع القيادة - قالت هذا ثم أخذت المهمة عن الطاولة...

«هذا يعني، إذا لم أقبل الآن بالمهمة - فكرت في داخلي. - فلن أتمكن من رؤية آسيل مرة أخرى».

وهكذا، ساء وضعي أكثر، ولقد فهمت بصورة واضحة، أنني سأندم على فعلتي طيلة حياتي فليكن ما يكن - إنني سأسافر!...

- حسناً، هات المهمة، سأسافر - أخذتُ المهمة من يدها.

عاد جانتاي من جديد، وأدخل رأسه في النافذة وقال:

- سلّم على جدتي هناك!

لم أقل شيئاً. ولكنني قررت أن أغرس بوزه في التراب!... أغلقت الباب خلفي وذهبت إلى السكن.

في اليوم التالي، نظرت خلال الطريق، فأين هي؟ فهل سيظهر أمامي خيال جسمها النحيف الرشيق كالحورة الشابة؟ أين أنت يا حورتي في منديل أحمر! يا أيتها الحورة السهلية! ولا يهم أن تكوني في جزمة مطاطية، أو في جاكيت أبيك. كل هذا لا قيمة له. فأنا رأيت كم كنت رائعة!

لقد مست آسيل نياط قلبي، وأيقظت روحي بكل أعماقها!

خففتُ من سرعة السيارة، وأخذتُ أنظر من حولي، وعلى جانبي الطريق، فلم أجد أحداً، ولا أي صوت يشير إلى وجودها، وصلت إلى القرية، وها أنا أمام بيتها، أوقفت السيارة. عسى أن تكون في البيت؟ ولكن كيف لي أن أطلبها، وماذا سأقول؟ إيه، إن قدري لا يسمح لي برؤيتها. ذهبت لأفرغ الحمولة، كنت أفرغ السيارة، وفي روحي تشتد الرغبة لرؤيتها: ربما سألتقي بها الآن عند العودة؟ ولكن لم يحصل هذا، ولم نلتق. عند ذلك ذهبت إلى الورشة، وهذه الورشة كانت بعيدة عن القرية. سألت فتاة عند الباب عن آسيل. فجاء الجواب، إنها لم تأت اليوم إلى العمل. «هذا يعني أنها لم تأت إلى العمل عن قصد، حتى لا تلتقي معي في الطريق».

- أخذت أفكر بشتى الطرق، وكنت أزداد كآبة. وهكذا عدت حزيناً إلى محطة السيارات. في اليوم الثاني، سافرت ثانية على

نفس الطريق، ولكن الأمل في رؤيتها قد اضمحل كلياً. وفي واقع الأمر فكرت في نفسي، ما حاجتي لها، ولماذا عليَّ أن أقلق على هذه الفتاة، طالما هي مخطوبة؟ ولكن لم أستسلم وأعترف أن كل شيء قد انتهى بيننا. فالمسألة في القرى ما زالت كالسابق، يعطون بناتهم لشباب بدون موافقتهن، وكم نشر في الصحف عن هذه الظاهرة. وعلى أي حال، ما الفائدة؟ فبعد المعركة، الرجل لا يلوح بسيفه. فإذا زوجوها، يصعب إرجاعها فالحياة تصبح مكسورة.. هذه الأفكار، وغيرها الكثير أخذت تعصف في رأسي.. الربيع كان في أحسن أيامه، كل شيء أخضر، والأزهار غطت الأرض، والمروج بالقرب من الجبل موشحة بالورود، وحبذا لو أجمع باقة من السوسن وأقدمها لها! ولكن في البداية علي أن أجدها.. وفجأة أراها أمامي، ولم أصدق عينيَّ - آسيل! ها هي تجلس جانب الطريق فوق صخرة ملساء، وفي نفس المكان الذي غرقت سيارتي فيه. وبدت أنها تنتظر أحداً ما! فخافت، ووقفت في مكانها، وحارت في أمرها، حتى خلعت المنديل عن رأسها، وجمعته في يدها. أما آسيل فقد كانت في هذه المرة في فستان جميل، وتنتعل حذاءً جديداً كعبه عالٍ، رغم المسافة الطويلة حتى القرية. أوقفت السيارة على جناح السرعة، أما قلبي فقد قفز من مكانه، وأخذ يخفق، وكأنه يرغب بالخروج من حنجرتي.

- مرحباً، يا آسيل!

- مرحباً! - أجابت هي بصوت هادئ.

مشينا نحو السيارة، وفتحت باب الحجرة، ورغبت في مساعدتها عند الصعود إلى حجرة السيارة ولكنها استدارت، وسارت بهدوء على حافة الطريق. هذا، يعني، أنها لا ترغب بالجلوس. قمت

بتشغيل السيارة. وفتحت الباب، وأخذت أسير إلى جانبها بهدوء، وهكذا سرنا: هي على قدميها، وأنا خلف المقود. التزمنا الصمت. وعن ماذا سنتحدث؟ ثم سألت:

- البارحة جئت إلى الشركة؟.

- نعم، وماذا؟

- هكذا، لا شيء، فليس من الضروري أن تعاود الذهاب إلى هناك.

- لقد رغبت برؤيتك.

أما هي فقد أحجمت عن الكلام.

الشيء الوحيد الذي كان يعذبني، هو تلك الخطوبة. كنت أرغب معرفة حقيقة الأمر. ولكن لساني لم يلب رغبتي بتوجيه سؤال لها، إذ كنت أخاف من جوهر الإجابة.

نظرت آسيل نحوي. وكأنها فهمت ما دار في خلدي فسألتها:

- هل هذا صحيح؟

أحنت رأسها موافقة. اهتز المقود بين يدي، واضطربت، ثم سألتها:

- متى سيكون العرس؟

- قريباً - أجابت هي بفتور.

كدت أطير بسيارتي بعيداً، إلى أين تنظر عيناي. ولكن، وبدلاً من أن أضغط على السرعة، ضغطت على الوقوف. فارتجت السيارة في مكانها، وأخذ المحرك يصدر صوتاً في دوران لا معنى له. أما آسيل فخافت من هذا، وقفزت بعيداً. أما أنا فلم أعتذر ولم أكن في وضع يخولني من الاعتذار، فسألتها:

- هذا يعني، أننا سننقطع عن مشاهدة بعضنا؟

- لا أعلم، من الأفضل ألا نلتقي.

- أما أنا، فأنا على أي حال.. كما تريدين، فأنا سأبحث عنك!

عدنا إلى الصمت ثانية. ربما كنا نفكر بشيء واحد، وربما يحيل فيما بيننا جدار مرتفع، لم يسمح لي أن أقترب منها، ويمنعها من الجلوس إلى جانبي في السيارة. فقطعت الصمت وسألتها:

- أرجوك، يا آسيل، لا تبتعدي عني. فأنا لن أزعجك مطلقاً. وسوف أنظر إليك من بعيد. فهل تعديني بذلك؟

- لا أعرف، ربما...

- اجلسي، يا آسيل.

- كلا، سأذهب مشياً. القرية قريبة.

بعد هذا اللقاء، التقينا على الطريق، وفي كل مرة كنا نلتقي، وكأنها مصادفة ومن جديد: هي تسير حسب العادة، وأنا أجلس في الحجرة، شيء مزعج، ولكن لم يكن ممكناً فعل ما هو أفضل من هذا.

لم أسألها عن العريس. فهذا أمر غير مريح، ولم أرغب في ذلك. ولكن من خلال كلامها فهمت، أنها لا تعرفه جيداً. وكانت تجمعها به صلة قرابة بعيدة من جهة أمها. وكان يعيش في جمعية تصنيع الأخشاب في الجبال. أما أسرتها والأسر القريبة منها اتبعوا عادة تبادل العرائس فيما بينهم لتمتين أواصر القرابة فيما بينهم من جيل لجيل. أما أهل آسيل، فلم يفكروا مطلقاً بالموافقة على زواجها بعيداً عنهم. أما بخصوصي فلم يكن هناك أي حديث، فمن أنا؟ مجرد سائق، عابر طريق، وأنا شخصياً لم أجرؤ على إدخال نفسي. والكلام حول هذا.

أما آسيل، فلقد كانت في هذه الأيام كئيبة، ولم تتكلم كثيراً. وكانت تفكر دائماً بشيء ما في رأسها ولكني لم آمل في شيء. فمصيرها قد تقرر. واللقاءات معها، كانت بلا جدوى. ولكننا، كالأطفال نجتهد ألا نتحدث عن هذا، والتقينا لأنه لم يكن بمقدورنا ألا نلتقي. وبدا لنا الأمر، وكأننا لا نقدر على العيش، واحد بدون الآخر.

هكذا مضت خمسة أيام، وفي ذلك الصباح كنت في محطة السيارات، أجهز نفسي للرحلة. وفجأة جاء طلب لمراجعتي الإدارة.

بإمكانك أن تفرح! - استقبلتني كاديتشا بوجه بشوش، - لقد حولوك إلى خط دولون.

جمدت في مكاني. إذ عشت هذه الأيام الأخيرة، وكأنني سأبقى إلى الأبد على طريق كولخوز آسيل. ولكن الرحلات عبر دولون طويلة، وتحتاج الرحلة لعدة أيام. ومن يعلم متى سيكون بإمكاني أن أذهب لرؤية آسيل؟ وهل يصح أن أختفي هكذا، دون أن أعلمها بهذا؟

- يبدو أنك لم تفرح للخبر، - قالت كاديتشا:

- وكيف الأمر بالنسبة للكولخوز؟ - قلت مرتبكاً. - فالعمل هناك غير مكتمل، وهم بحاجة للمواد.

هزت كاديتشا كتفيها مستغربة، وقالت:

أنت منذ بداية الأمر لم ترغب بهذا.

غضبت، وقلت في الإجابة:

- نحن نتكلم عن اليوم، وأنت تتكلمين عن الماضي!

جلست على كرسي، أفكر ما العمل، ولم أجد حلاً.

جـــاء جانتـــاي مهـــرولاً، واتضـــح أنهـــم أرســـلوه مكـــاني إلى الكولخوز. أخذت أصغي ربما سيرفض جانتاي السفر إلى هناك، حيـث أن الأجـر علـى الطـرق الريفيـة أقـل. ولكنـه أخـذ المهمـة، وقال مضيفاً:

- أنـا موافـق، فـإلى أي مكـان ترسـليني، أنـا مسـتعد للتنفيـذ يـا كاديتشـا، ولـو لآخـر الـدنيا. والآن الخـراف هنـاك قـد نضـجت، ربما نجلب خروفاً؟

وعندما رآني، قال مرتبكاً:

- سامحوني، يبدو أنني أزعجتكم!

- اذهب من هنا!... قلت باشمئزاز، دون أن أرفع رأسي.

- مـا بـك تجلس، يـا إلياس؟ - اقتربـت كاديتشـا مـني وهـزتني من كتفي.

- عليّ أن أسـافر إلى الكولخـوز، أرسـليني، أنـا، يـا كاديتشـا! - طلبت منها بهدوء.

- هل أنت في كامل عقلك؟ لا أقدر على تقييد المهمة! - أجابت كاديتشـا، ونظـرت قلقـة إلى وجهـي. - مـاذا حـلّ بـك، حتـى أصـبحت ترغب بالسـفر إلى هنـاك؟ لم أجب بشـيء. وخرجـت صـامتاً، وتوجهـت إلى الكراج، أما جانتاي، فقد خرج من الكراج وهو يسوق سيارته، فغمزني بعينه ضاحكاً. وكاد يصدمني بحافة السيارة.

انتظـرت، ولم أخـرج مـن الكـراج بسـرعة، ولكنـه لم يكـن هنـاك أي مخـرج. سـافرت إلى محطـة الإمـداد. وهنـاك كـان الدور قصيراً.

عندما وصلت، ناداني زملائي للتدخين معهم، ولكني لم أخرج

من حجرة السيارة، أخذت أغمض عيني، وأتصور كيف ستنتظر آسيل بلا جدوى على حافة الطريق. وستنتظر يوماً، يومين، ثلاثة أيام... وماذا ستفكر لعدم حضوري؟

أخذ الصف يقترب، وأخذ العمال يحمّلون السيارة التي تقف أمامي مباشرة، وبعد دقيقة سأقف تحت الرافعة. «سامحيني، يا آسيل! - أخذت أفكر. - سامحيني يا حورتي السهلية»! وهنا خطرت على بالي فكرة: - كان بإمكاني أن أقول لها كلمة وأعود على جناح السرعة. لا يوجد ضرر كبير في الأمر - سأخرج للرحلة المقررة بعد عدة ساعات. وسأشرح فيما بعد للمدير في المحطة، وهو سيتفهمني، وإذا، لم يتفهم الوضع دعه يفعل ما يشاء، ولو قام بتنبيهي، أو توبيخي.. لا أقدر أن لا أذهب! سأسافر»!

شغلت المحرك حتى أرجع للخلف، ولكن صف السيارات كان طويلاً خلفي. وعند تلك اللحظة انطلقت السيارة التي كانت تقف أمامي، وجاء دوري.

- قف! إيه، إلياس! - صرخ عامل الرافعة.

ثبتت الرافعة حملها فوق سيارتي. وهكذا انتهى الأمر! ليس لي أي مفر، فنقل المواد ضروري، ولا يؤجل. آه! كيف لم أفكر بهذا سابقاً؟ جاء المرسل مع الأوراق. نظرت عبر النافذة الزجاجية الخلفية: هناك كانت تتأرجح في الفضاء حاوية، وهي تنزل وتنزل تدريجياً. وهنا صرخت: - احذر!

انطلقت سيارتي من مكانها، وكأنها تهرب من تحت الحاوية. لقد كان المحرك يعمل، ومن الخلف اعتلى صوت المسبات والصراخ، والصفير..

اجتزت المسافة من جانب المستودعات، وحزم ألواح الخشب، وتلال الفحم الحجري، وكأنني ولدت مع المقود. أخذت أنهب الأرض بسيارتي، وأنا أجتاز السيارات، الواحدة بعد الأخرى، وأنتقل في الطريق من يمينه إلى شماله، وبالعكس...

لم يمض وقت قصير حتى لحقت بسيارة جانتاي، نظر من نافذة الحجرة، وقد جن جنونه، وجحظت عيناه: لقد عرفني، وشاهدني مسرعاً، فأخذ يعرقل مسيري، بدلاً من أن يفسح لي الطريق، أطلقت سيارتي على كل طاقتها، واجتزته، عجلة على الإسفلت والأخرى في الأرض على حافة الشارع: أخذت أسير في الأرض، وعندها سمح لي أن أجتازه، ولكنه لم يسمح لي بالعودة إلى الطريق إلا بعد جهد جهيد، وبعد سباق، يضغط الواحد منا على سيارته حتى الأخير ممسكاً بمقودها، ويسبّ الواحد الآخر كما يشاء.

- إلى أين أنت؟ لماذا؟ - يصرخ هو من نافذة حجرته.

أما أنا فقد هددته بيدي، بعد أن جمعت أصابعي بقبضة حديدية. وبفضل فراغ سيارتي من الحمولة تمكنت من اجتيازه، ومغادرته بعيداً.

لم أجد آسيل عند الطريق. دخلت في القرية، وكنت ألهث تعباً، وكأنني قطعت المسافة مشياً على الأقدام، التقطت أنفاسي بصعوبة. ولكن لم يكن أحد في البيت، ولا بالقرب منه، وليس في الشارع المحاذي. وثمة حصان مربوط في مكانه، والسرج عليه. فما علي أن أعمل؟ قررت الانتظار، وفكرت، عندما يرون السيارة يخرجون إلى الشارع. فتحت غطاء المحرك، وأخذت أشد بعض البراغي وكأنني أصلح المحرك من عطل، وكنت أراقب البوابة. لم أنتظر طويلاً؛ وها هي البوابة تفتح وتخرج منها أمها، وكهل ذو لحية سوداء،

رجل ضخم ومهيب، كان يرتدي رداءين قطنيين: الداخلي طويل، والخارجي مخملي.

كان يمسك بيده سوطاً جميلاً... وكان وجهه أحمر، منتفخاً قليلاً، يبدو أنه شرب الشاي بعد حمام، اقتربا من مربط الخيل، أمسكت أم آسيل الرِّكاب باحترام ، وساعدت الكهل على الصعود والجلوس على صهوة الحصان.

- نحن راضون، وتُشرفنا العلاقة معكم حضرة العم! - قالت الأم. - ولا تقلقوا بخصوصنا. فنحن جاهزون أن نقدم كل شيء لابنتنا، ولن نبخل عليها بشيء والحمد لله إن أيدينا ليست فارغة.

- إ - إ - أيّتها السيدة، نحن شاكرين، وسنكون أقرباء - أجاب الكهل، وهو يرتب وضعه فوق الحصان. - عسى الله أن يوفق الشباب العروسين بالصحة، أما بخصوص الخير: ليس للغرباء - إنه للأبناء. وهذه ليست أول مرة نتقارب من بعضنا فيها... عسى أن تبقى بصحة أيّتها السيدة، حتى يوم الجمعة كما اتفقنا: إلى الجمعة!

- نعم، نعم، إلى الجمعة. يوم مقدس. رحلة سعيدة لكم، بلغوا سلامي إلى أم العريس.

«لماذا يؤكدون على يوم الجمعة كثيراً؟ - أعتقد. - في أي يوم نحن الآن؟ الأربعاء.. وهل سيقومون بأخذ آسيل بعد يومين؟ إيه، وإلى أي وقت ستبقى العادات القديمة تحدد لنا، نحن الشباب، مصيرنا، وتسيء إلى الكثيرين، حيث تقضي على طموحاتهم ورغباتهم... !».

توجه الكهل، وهو يتأرجح فوق الحصان، نحو الجبل. انتظرت أم آسيل، حتى اختفى كلياً، ثم استدارت نحوي، ونظرت إلي نظرة ليس فيها شيء من المودة، ثم قالت:

- ماذا حلّ بك أيها الشاب، حتى تأتي إلينا كثيراً؟ فهنا ليس مكان لتصليح السيارات! وليس لك هنا أي موقف! اذهب من هنا، أتسمعني؟ هكذا أقول لك.

هذا يعني أنها اكتشفت الأمر.

- في سيارتي عطل كبير! - قلت بصوت خشن، وأنا أصلح المحرك، وكان نصفي العلوي قد أصبح تحت السيارة وأنا أقول في نفسي: لن أذهب من هنا حتى أراها.

أما الأم، فقالت بعض الكلمات التي لم أسمعها بوضوح، واستدارت لتدخل إلى بيتها. خرجت من تحت المحرك، وجلست القرفصاء، أدخن سيجارة، وهنا جاءت من جانب الشارع الآخر فتاة صغيرة، تقفز على رجل واحدة حول السيارة. تشبه آسيل كثيراً. فهل تكون أختها يا ترى؟

- آسيل قد غادرت! - أخذت هذه الفتاة تكرر ذلك وتقفز في مكانها، فسألتها:

- إلى أين؟ - أمسكت بها، - إلى أين غادرت آسيل؟

- أنا لا أعرف! اتركني! - حررت نفسها من بين يدي، ومدت لي لسانها، وغادرت.

أغلقت غطاء المحرك، ثم جلست خلف المقود، إلى أين عليّ أن أذهب وأنا سأبحث عنها؟ لقد حان الوقت لعودتي. سرت ببطء على الطريق، ودخلت في السهوب. توقفت عند التحويلة، بالقرب من القناة. ماذا علي أن أفعل، إنني لم أعد قادراً على التفكير. خرجت من حجرة القيادة، واضطجعت على الأرض. عم الهدوء في كل مكان. ولم أجد آسيل، ولم أقم بالعمل الملزم به... غرقت في التفكير، لم أعد أرى، ولم أسمع شيئاً في الدنيا. لم أدرك كم من الوقت اضطجعت ولكن

عندما رفعت رأسي، نظرت نحو القرية، من خلف السيارة، فشاهدت أرجل فتاة في حذاء كعبه عالٍ. هذه هي! عرفتها مباشرة، فرحت للغاية وبلا حدود، حتى أخذ قلبي يخفق سعادة. نهضت وجثيت على ركبتي، وكان يصعب عليّ الوقوف، وكان ذلك في نفس المكان الأول، حيث التقينا لأول مرة، فقلت مخاطباً الحذاء:

- مري! مري! أيتها العجوز! - قلت أنا للحذاء.

- أنا لست جدة! - أتقنت آسيل اللعبة.

- ومن أنت؟

- فتاة.

- فتاة؟ جميلة؟

- أخرج من تحت السيارة وأنظر لي!

ضحكنا سوية. ونهضت، راكضاً إليها، وهي ركضت للقائي. توقفنا الواحد أمام الآخر.

- أجمل فتاة! - قلت لها. أما هي، كانت تشبه الحورة الشابة في مهب الريح. مرنة ورشيقة في فستان بأكمام قصيرة، كانت تمسك بيدها كتابين. - كيف علمتِ أنني هنا؟

- كنت في المكتبة، ونظرت إلى الطريق، فوجدت أثر عجلات سيارتك!

- حقاً، هكذا؟ - وكانت هذه الكلمات أهم بكثير من أن تقول لي: «إنني أحبك»، لأن هذا يعني، أنها كانت تفكر بي دائماً، وإنني عزيز على قلبها، إذا كانت تبحث عن آثار عجلات سيارتي.

- وهكذا ركضت إلى هنا، إذ اعتقدت أنك تنتظرني!...

أمسكت يدها بهدوء:

- اجلسي، يا آسيل، لنتجول قليلاً بالسيارة.

وافقت فوراً، وبرغبة كبيرة حتى كدت لا أصدق أنها هي. وأنا أيضاً لم أعرف نفسي. وخلال لحظات بسيطة زالت كل المشاعر القلقة والآلام المرة عنا نحن الاثنين. وبقينا كشخص واحد، مع سعادتنا، أمامنا طريق واحد، وفوقنا سماء صافية تغطينا. فتحت باب الحجرة، وأجلستها، ثم دُرت حول السيارة لأجلس خلق المقود.

وهكذا انطلقنا، بكل بساطة في الطريق، ولم نعرف إلى أين، ومن أجل ماذا؟ ولكن لم يكن هذا الأمر ذا أهمية بالنسبة لنا. ويكفي أن نجلس إلى جانب بعضنا، وأن نتنعم بالنظر إلى بعضنا، نمسك يداً بيد، وضعت آسيل قبعتي العسكرية كما يجب فوق رأسي (كانت القبعة قديمة إذ لبستها سنتين كاملتين). وقالت:

- هكذا أجمل! - ثم ضمت نفسها بحنان ومودة إلى كتفي...

أما السيارة فقد كانت تطير كالطير عبر السهوب. وكل العالم أصبح يتحرك بنشاط في عالمي، وكل الأبواب فتحت، وكل شيء كان يركض للقائي. الجبال، السهول، الأشجار... حتى الريح كانت تدغدغ وجهينا - كنا نطير إلى الأمام، والشمس تشع في السماء، ونحن نضحك، وحمل النسيم أريج الشيح والخزامى، نحن نتنفس برئة واحدة، ونعيش بنبضات قلب واحد، ونتنفس الصعداء ملء صدرينا.

أما حدأة* السهوب، التي كانت تجلس على شاهدة قبر عتيق، قد طارت، وأخذت ترفرف بجناحيها، وتنزل منخفضة إلى جانب الطريق، وكأنها تتسابق معنا.

---

* الحدأة تعتبر فأل شؤم ومصائب عند الكثير من شعوب الشرق، وخاصة عند الشعب القرغيزستاني. ولم يدخلها الكاتب هنا عن عبث، فهو رمز بهذا إلى مستقبل سيئ لهذا الحب المتأجج الآن. - (المترجم).

ومن الجهة المقابلة، ظهر فجأة فارسان، ابتعدا عن الطريق خوفاً من سرعة السيارة، ثم لحقا بنا، وهما يصرخان بأعلى صوت:

- إي، إي، قف! توقف! وأخذا يضربان بالسياط حصانيهما. فمن كانا، لا أعرف، ربما عرفتهما آسيل. لا أدري. ولم تمض ثوان، حتى اختفيا في الغبار الكثيف.

وفي المقدمة، كانت أمامنا عربة، ابتعدت على الفور عن الطريق، وثمة شاب وشابة نهضا على الفور، وعندما شاهدناهما، ضمّ أحدهما الآخر من كتفه، وحيانا بترحيب.

- شكراً! - صرخت لهم من نافذة الحجرة.

انتهت السهوب، خرجنا إلى الطريق المعبد، فأخذ الإسفلت يضجّ تحت العجلات.

آه، بالقرب من هنا، توجد بحيرة، فاتجهت إلى هناك، ومشينا مسافة في الأرض البكر، عبر الأشواك والحشائش والأعشاب وجهت السيارة نحو الشاطئ، وتوقفنا على تلة، تشرف على الماء مباشرة.

فوق وجه الماء كانت أمواج زرقاء - بيضاء، تبدو، وكأنها تتماسك بالأيدي، وهي تتجه نحو الشاطئ الرملي الأصفر. أخذت الشمس تختفي خلف الجبال، والوديان المليئة بالماء بدت بلون وردي. ومن جهة أخرى امتدت سلسلة من الجبال المغطاة بالثلوج، وبدت بلون بنفسجي بينما كانت الغيوم الداكنة تتكاثف فوقنا.

- انظري، يا آسيل! البجعات تسبح!

إن البجع يأتي عادة إلى بحيرة إيسك - كول في الخريف والشتاء. أما في الربيع نادراً ما تأتي إلى هذه المناطق. ويقال أن هذه هي من بجعات الجنوب المتجهة للشمال. ويقال: إن هذا فأل خير وسعادة...

حطت أسراب البجع ذات اللون الأبيض فوق البحيرة عند المساء، وكانت الطيور في حركة دائمة، مجموعات تطير إلى الأعلى، وأخرى تحط فوق مياه البحيرة، وهي تصفق بأجنحتها بأشكال مختلفة. تحط فوق المياه، تصخب بأصواتها المتنوعة، محدثة زبداً كثيفاً تطرده بعيداً من خلال دوائر الأمواج المتكونة، وتعود لتغادر من جديد مرتفعة إلى حضن الفضاء.

ثم ينتظم البجع في سلسلة ذات أشكال مختلفة، تطير بانتظام، وهي تخفق بأجنحتها متجهة نحو المناطق الرملية من الخليج لتقضي ليلتها.

جلسنا، في حجرة السيارة، ونحن ننظر صامتين، ثم قلت، هكذا، وكأننا قد قررنا كل شيء: - انظري يا آسيل، ترين تلك الأسقف على الشاطئ الآخر، هذه محطة السيارات التي نتبع لها. وذاك - وأشرت بيدي خارج الحجرة، - هو بيتنا! - ضحكت. ولكن، وللأسف لم يكن عندي مكان أصطحبها إليه.

نظرت آسيل إلى عيني، والتصقت إلى صدري، تغمرني بيديها، وهي تبكي أحياناً، وتضحك أحياناً أخرى:

- يا عزيزي، يا حبيبي! لا يلزمني بيت وغيره. وفقط يهمني أن يكون أبي وأمي، سعيدين، وحتى، ولو في وقت لاحق أن يتفهموا وضعي. ولو تصرفت تصرفاً خاطئاً لغضبا مني مدى الحياة، أنا أعرف طبعهما... ولكن، هل أنا مخطئة؟...

أخذت الظلمة تنتشر في كل مكان، وانتشرت الغيوم الداكنة في السماء، واقتربت جداً من المياه، وبردت البحيرة، واسودت المياه جداً، وفي الجبال، بدت الأنوار وكأنه يعيش ويعمل هناك عامل لحام

كهربائي. فتارة تشتعل الأنوار بشدة تبهر الأبصار، وتارة تنطفئ. اقتربت العاصفة، وليس من باب المصادفة، أن البجعات قد غيرت مسارها، وعادت إلى هنا، في طريقها، فهي قد شعرت مسبقاً، أن الطقس البارد سيؤثر على طيرانها فوق الجبال.

قصف الرعد، وهطل المطر الغزير بصوت عال وعاصف، اضطربت، وغلت البحيرة، وساءت، وأخذ الموج الخفيف والزبد يرتفع فوقها، وتصطدم التموجات بالشاطئ القوي، هذه هي العاصفة الأولى في فصل الربيع. وكانت هذه الليلة هي الأولى في حياتنا، كان المطر يقرع بشدة على حديد وزجاج حجرة القيادة، والمياه تسيل بكثافة على جانبي السيارة. وفي البحيرة التي غلفتها الظلمة كانت تصطدم إشعاعات البرق الكثيف، الذي كان بين الحين والآخر يشعّ في زوايا مختلفة من السماء، وتنزل إلى البحيرة وتتكسر فوق تموجاتها، وأنا وآسيل كنا نضم بعضنا ونتحدث هامسين عما في قلبينا، وعندما شعرت أن آسيل ترتجف: إما من الخوف، أو لأنها بردت جداً. غطيتها بمعطفي، وغمرتها بكل ما لدي من قوة وحنان، وهنا اكتشفت نفسي بأني قادر على منح الآخرين حبي وقوتي ودفئي. ولم أعتقد يوماً، أنه يوجد لدي هذا الكم الهائل من النعومة؛ ولم أعلم أن هذا شيء رائع وجيد، أن تحافظ على إنسان ما، وقلت لآسيل هامساً في أذنها: «لن أسمح لأحد أن يمسَّك بسوء، يا حورتي في منديل أحمر!...».

انتهت العاصفة بسرعة، كما ابتدأت، ولكن المطر تتابع هطوله الغزير فوق البحيرة المضطربة.

أخرجت جهاز الراديو الصغير، الذي كنت أصطحبه معي في السفر، وهو الشيء القيّم الوحيد لدي في تلك الفترة. جهزته جيداً،

وكان يلتقط موجات كثيرة. وأذكر الآن، كيف كان ينقل من مسرح المدينة تسجيل حفل باليه «تشولبون» من خلف السلاسل الجبلية، حتى أسمعها صافية عندي في حجرة السيارة. ولا تفقد شيئاً من الخصائص الموسيقية، بكل رقتها وشفافيتها وقوتها، كالحب نفسه، الذي تم الكلام عنه في هذه الباليه، حيث كانت الصالة تشتعل بالتصفيق الحاد، والناس يصرخون بأسماء الراقصين، وربما كانت تنهال باقات الورود والزهور على أرجل راقصات الباليه الشهيرات، ولكن لم يشعر أحد من الجالسين في صالة المسرح، كما شعرنا نحن بعظمة الفن، وسعادة الحب، هنا في حجرة السيارة على شاطئ بحيرة إيسك - كول الغاضبة. في هذه الباليه كان الكلام يجري عنا وعن حبنا. ولقد تعاطفنا وتفاعلنا مع قصة مصير الفتاة تشولبون، التي خرجت إلى العالم تبحث عن سعادتها، وها هي فتاتي تشولبونتي. نجمة صباحي الأبدية معي. في منتصف الليل خلدت للنوم على كتفي، أما أنا فلم أتمكن من العودة للهدوء. كنت أمسح على وجهها بهدوء، وأستمع كيف تتنفس بحيرة إيسك - كول في أعماقها...

في الصباح وصلنا إلى محطة السيارات. وهناك كان ينتظرني توبيخاً ساخناً من زملائي وأصدقائي والإدارة. ولكن عندما عرفوا، لماذا تصرفت هكذا، كانت الأسباب مقنعة وسامحوني، وفيما بعد أخذوا يضحكون، كلما رأوني، وهم يتذكرون كيف هربت بسيارتي من تحت رافعة التحميل.

كان علي أن أقوم بنقل مواد عبر مدينة دولون، فأخذت آسيل معي. وحسبت أن أتركها في طريقي في بيت صديقي علي بيك

جانتورين، إذ كان يعيش مع أسرته في محطة النقل. بالقرب من هارين، وهذا ليس بعيداً عن الحدود. وكنت دائماً أزورهم، وزوجة علي بيك امرأة محترمة، كنت أكن لها فائق الاحترام كإنسانة وكزوجة لصديقي.

انطلقنا، وكان علينا أن نقوم بشراء بعض الأشياء من المخزن الكبير المخصص للمسافرين، وخاصة شراء بعض الألبسة لآسيل، فهي كانت في فستان رقيق وبالإضافة لهذه المشتريات الصغيرة قمنا بشراء شال ملون كبير مخصص للعرائس. وكان هذا ضرورياً، ففي الطريق صادفنا سائق مسن من زملائنا يدعى أرمات - أكي، وكان قد أعطاني إشارة من بعيد للتوقف. توقفت على جانب الطريق، وخرجنا من حجرة السيارة، وسلمنا:

- السلام عليكم، يا أرمات - أكي!

- وعليكم السلام، يا إلياس. مبروك ما فعلت. ولتكن متينة أواصر المحبة والثقة بينك وبين الصقر التي حطت عليه يدك! - قدم لي التهاني، حسب العادات - وليعطيكم الله السعادة والأولاد.

- شكراً! ومن أين عرفتم، يا أرمات - أكي؟ - استغربت كيف انتشر الخبر.

- إ، إ، يا بني، الخبر السار، ينتشر سريعاً في الأرض. إذ ينتقل من إنسان لإنسان على طول الطريق...

- هكذا إذن! - ولقد استغربت أكثر من ذي قبل.

وقفت مع أرمات - أكي نتحدث على حافة الطريق، أما هو، العارف للعادات، لم يقترب من حجرة السيارة حيث تجلس آسيل، ولم يحاول أن ينظر إليها. وحسناً ما فعلته آسيل، إذ غطت رأسها، وحجبت وجهها كما يجب، ساعتئذٍ ابتسم أرمات - أكي راضياً، وقال:

- هكذا، هو الصحيح! شكراً لك يا ابنتي على الاحترام. فأنت من الآن وصاعداً كنتنا جميعاً، نحن العاملين في محطة السيارات. حافظي على إلياس، وأنتَ يا إلياس صن زوجتك. ثم قدم لي نقوداً كهدية. لم يكن بإمكاني أن أرفض، لأن هذا سيزعجه حسب العادة.

افترقنا. أما آسيل لم تخلع المنديل عن رأسها، وكأنها في بيت قرغيزي محافظ، وكانت تجلس في حجرة السيارة، وهي تغطي وبخجل لطيف وجهها، عند لقاء أحد معارفي من السائقين، وعندما نبقى وحدنا، كنا نضحك من كل هذا.

بدت آسيل لي في المنديل أكثر جمالاً ورقة، فقلت لها مبتسماً:

- ارفعي عينيك يا عروستي، قبليني!

- لا يجوز، سيرانا أصدقاؤك! - كانت تجيب، وبنفس الوقت، وبسرعة خاطفة، تقبلني على وجنتي.

كل السائقين من زملائي في المحطة، كانوا يعطونا إشارة، فنتوقف احتراماً، ويقومون بتهنئتنا، ويتمنون لنا السعادة، والكثير منهم جلبوا باقات الزهور، التي قاموا بجمعها خلال الطريق، وقاموا بتقديم الهدايا، ولم أعلم من نظم تلك الفكرة، ربما بادر إلى هذا شبابنا الروس. فعندهم في القرى، يقومون بتزين السيارة التي يجلس فيها العريس، وبعض السيارات المرافقة، وهكذا قاموا بتلوين وتزيين سيارتنا بشرائط حمراء وبيضاء، وزرقاء، وخضراء، ومناديل حرير، وباقات الورود. فأصبحت السيارة ذات جمال خاص، ويلاحظها الناس من مسافات بعيدة، كنت أنا وآسيل سعيدين للغاية، وافتخرت جداً بأصدقائي. ويقال: إن الأصدقاء يظهرون عند الضائقة، ولكن بالنسبة لي، ظهروا وأكدوا صداقتهم خلال فترة سعادتي.

وخلال الطريق، التقينا علي بيك جانتورين، وهو أقرب صديق لي. إنه أكبر مني بسنتين، وهو قصير القامة، وعريض المنكبين، ذو رأس كبير، لطيف وذكي، وجاد في علاقاته، وسائق متميز. يحترمه الجميع في المحطة، إذ تم انتخابه بالإجماع إلى اللجنة النقابية. لنرى ماذا سيقول لنا؟

نظر علي بيك إلى سيارتنا صامتاً، هزّ رأسه. اقترب من آسيل، سلّم عليها، إذ مد لها يده، وشدّ على يدها، وقدم التهاني.

- أين استمارة مهمتك؟ هاتها! - طلب مني بهدوء. فقدمت له الورقة على الفور، فأخرج علي بيك قلم الحبر من جيبه، وكتب بأحرف كبيرة على هامش كل المهمة: «رحلة زواج، رقم 167!» مئة وسبعة وستون - رقم المهمة.

- ماذا تفعل؟ - لم أعرف ما أقول له. - فهذه وثيقة رسمية!

- يحتفظ بهذه الوثيقة للتاريخ - قال علي بيك ضاحكاً. - وهل تفكر أن البشر الجالسون في المحاسبة ليسوا بأناس، وليس لهم أحاسيس، وعادات وتقاليد؟ والآن هات يدك! - شد على يدي وضمني إلى صدره، وقبلني، وضحكنا بصوت عال.

وبعد هذا توجهنا نحو السيارات، ولكن علي بيك استوقفني، وسأل:

- أين ستعيشون؟

فردت يديَّ، وقلت مشيراً إلى السيارة:

- هذا هو بيتنا!

- في حجرة السيارة؟ والأولاد ستربونهم هناك أيضاً؟ اذهبا الآن للعيش في شقتنا في المحطة، وسأتحدث في المحطة مع القيادة بهذا الخصوص، وأنا مع أسرتي سنذهب إلى بيتنا.

- بيتك يا علي بيك، ما زال قيد الإنشاء، فكيف ستعيش هناك؟ - كان علي بيك يقوم ببناء منزل في منطقة ريباتشي، ليس بعيداً عن محطة السيارات، وفي أوقات فراغي كنت أذهب لمساعدته.

- لم يبق هناك إلا بعض الأمور البسيطة، سنكملها. وأكثر من هذا، لا تتوقع الآن، أن تحصل على سكن فأنت تعرف جيداً كم هي كبيرة أزمة السكن عندنا.

- شكراً جزيلاً، أكثر من هذا لا يلزمنا. كنت أرغب أن أبقي آسيل عندكم لفترة، وأنت الآن تقدم لنا الشقة كاملة..

- على أية حال، عليكم أن تذهبوا إلينا، وتبقوا هناك. وعندما تعودان من الرحلة انتظرني في المحطة، وسنقرر كل شيء بالحوار مع زوجتينا! - وأشار إلى آسيل.

- بالطبع، الآن - فقط مع الزوجات.

- أتمنى لكما رحلة زوجية سعيدة! - قال علي بيك لنا مودعاً.

يا لحسن الحظ! فعلاً كانت هذه الرحلة - رحلة زوجية لنا! وأية رحلة رائعة!

كنا سعيدين بأن كل شيء يسير على ما يرام، وبمجرد لقاء أحدهم ساء مزاجي وتعكر صفوي.

عند أحد المنعطفات، التقيت سيارة جانتاي. لم يكن وحيداً، فإلى جانبه كانت كاديتشا، فلوح جانتاي لي بيده. فأوقفت السيارة بحدة، حيث وقفت سيارتي إلى جانب سيارته مباشرة. أبرز جانتاي رأسه من النافذة وقال:

- ماذا حل بك، لقد زخرفت السيارة، وكأنك في عرس؟

- هذا ما حصل! - أجبته بهدوء.

- حقاً هذا؟ - لم يصدق، والتفت نحو كاديتشا. - ونحن نبحث عنك! - قال هذا على عجل، وبلا تفكير.

أما كاديتشا جمدت في مكانها، كما كانت جالسة، وشحب وجهها، ولم تعرف ما تقول.

- مرحباً، يا كاديتشا! - ألقيت التحية عليها بود. أما هي فقد أجابت بانحناءة خجولة من رأسها.

- يعني، أن الفتاة التي معك هي خطيبتك؟ - فقط عندها عرف جانتاي.

- كلا، زوجتي - اعترضتُ على توقعاته، ووضعتُ يدي على كتف آسيل.

- هكذا إذن؟ ولقد حار جانتاي، ماذا سيقول، ونظر بعينين جاحظتين ولم يعرف كيف سيتصرف، يفرح أم لا، ولكنه قال:

- أهنئك، من قلبي أقدم لك التهاني...

- شكراً!

تعكر وجه جانتاي، وقال:

- شاطرٌ أنت ومحنّك! تزوجتَ بدون مهر؟

- يا لك من مجنون! - شتمته بنبرة حادة. - حرك سيارتك.

كم هو كثير عدد الأشخاص السيئين! لقد أردت أن أهينه أكثر، وكما يجب. نظرت من نافذة حجرتي، فوجدت جانتاي يقف عند سيارته، يمسح خدها ويصرخ بكلمات لم أفهمها، ويهدد كاديتشا بقبضة يده، أما هي، فقد أخذت تركض بعيداً عنه، وعن الطريق كلياً، ونزلت راكضة في عرض السهل، ركضت وتعثرت بشيء ما، فهوت على الأرض بشدة، وأخذت تشد على رأسها بكلتا

يديها، لا أعلم ماذا حصل بينهما. ولكنني كنت أأسف لحالها، عانيت من هذا الشعور، ويبدو أنني أخطأت في شيء ما. ولم أحدث آسيل بشيء.

بعد أسبوع في ضيافة صديقنا، قدمت إدارة المحطة لنا شقة في محطة النقل والتزويد. والشقة لم تكن كبيرة، موزع وغرفتان. ومثل هذه الشقق قليل، إذ تم بناؤها للعمال المتزوجين، ولديهم أسر، وكذلك للسائقين المتزوجين، وللعمال من فرع التزويد بالوقود. ولكنه مكان جيد. بالقرب من الطريق العام، ومدينة نارين ليست بعيدة. وهي مدينة مركزية في المنطقة ففيها سينما، ومخازن كبيرة، ومستشفى، والشقة مريحة، لأن محطة النقل قريبة. والمهمات عندنا تتم بين ريباتشي، ودولون وإلى أتباشي. وكان بالإمكان أن أستريح في البيت، وأنام بهدوء. كنت لا أطيل الغياب عن البيت، ويندر أن يمر يوم، إلا وأكون في البيت مع آسيل، حتى لو تأخرت في الطريق وبغض النظر عن التأخر، كنت أعود في منتصف الليل فأجد آسيل تنتظرني قلقة، وهي لا تستطيع النوم، قبل عودتي. بدأنا نجهز البيت ببعض الأغراض. وبكلمة أخذت الحياة تنتظم تدريجياً، وقررنا، أن آسيل ستبدأ العمل، وكانت هي تلح على هذا: لقد عاشت في قرية، وتحب العمل، ولكن، ولحسن حظنا فوجئنا بأن آسيل ستصبح أماً.

في ذلك اليوم، الذي أنجبت فيه آسيل، كنت عائداً من مدينة أتباشي، وكنت أسرع قلقاً. لقد كانت آسيل في مشفى الولادة في مدينة نارين، وصلت على المشفى فأبلغوني بولادة ابن! بالطبع، لم يسمحوا لي بالدخول إلى المشفى، حسب الأصول الطبية. جلست في السيارة، اتجهت إلى الجبال، كان الجو شتاءً، وكان الثلج في كل

مكان ويبهر البصر حتى يصبح الناظر يتصارع بين الأبيض والأسود، ويرى الأبيض كالأسود... قفزت فوق عرف منخفض دولون، وهو ذو ارتفاع عال، وتبدو الغيوم تزحف فوق الأرض، والجبال من تحتها، كالأقزام، قفزت من حجرة السيارة، وأخذت ملء صدري من الهواء الطازج، وصرختُ بأعلى صوتي حتى أسمع كل الدنيا:

- إي، إي، أيتها الجبال! لقد ولد عندي ابن!

بدا لي أن الجبال قد اهتزت. وكرر الصدى خلفي الكلمات طويلاً وبعيداً بين الوديان والجبال والهضاب والمضائق.

أسمينا الابن «صمداً» أنا أعطيته هذا الاسم. وكل أحاديثنا كانت تدور حوله: انظر لقد ابتسم ابننا صمد، لقد ظهرت أسنان صمد، وباختصار، كما عند الزوجين الشابين.

عشنا بهدوء، ويخيم الحب على جو الأسرة، ولكن فيما بعد حصلت عندي مصيبة...

من الصعب الآن معرفة من أين أتت التعاسة. لقد تشابكت الأمور واختلطت. وبالحقيقة، لقد فهمت شخصياً الآن الكثير من الأمور، ولكن ما النتيجة!

التقينا مع هذا الإنسان مصادفة، في الطريق، وافترقنا، آملين ألا يكون اللقاء الأخير.

في آخر الخريف، كنت أقوم بنقل مواد في رحلة دورية، كان الطقس عابساً، وينزل من السماء أحياناً مطر مخلوط بالثلج، ورذاذ مشبع بالماء، غير معروف، وفي سفوح الجبال كان يعم الضباب، بلون السحاب، وينتشر واسعاً، واستمر تقريباً طيلة الطريق، وكنت

مضطراً أن أشعل نور السيارة. بينما صعبت الرؤية من خلف زجاج الحجرة. لقد كنت على مسافة بعيدة في الجبال، بالقرب من منحدر دولون، إيه، دولون، دولون! يا لعظمة تيان شان! فكم من الروابط العديدة بيني وبينه! إنه أصعب مسافة في هذه الرحلة وأخطرها، زد على ذلك أن الالتواءات كانت كثيرة ومعقدة، العقدة، بعد الأخرى، والسير كله إلى الأعلى، ولكن، وفي بعض الأماكن، تنزلق في السماء، وتضغط على الغيوم بعجلات السيارة، أو تأخذك لتزجك في لونها الأشيب. ولم تعد إلى الاتزان، حتى تلف نصف دورة كاملة لننزل أو نصعد عند المنعطف. ولم تستطع لثانية واحدة أن تبعد إحدى يديك عن المقود. أما الطقس في منحدر الجبال، فهو يشبه الجمل المجنون: ففي الصيف، وفي الشتاء، لا يستقر دولون على وضع واحد، يسقط البرد، ثم يهطل المطر، ثم شيء مخلوط بين المطر والبرد، ثم تأتي عاصفة من الثلج تجعلك تسير كالأعمى، لا ترى شيئاً. هذا هو دولون الذي نحبه!.. ولكننا نحن سكان منقطة تيان شان تعودنا على هذا الجو، حتى يصادف لنا، أن نسير في الليل في مهمة. وحتى الوقت الحاضر نتذكر الصعوبات والمخاطر التي مرت بنا من وقت لآخر، ولكن عندما تقوم بالعمل كل يوم، فالإنسان يتعود. وليس لديه وقت للتفكير، واختيار الأسهل.

ذات يوم كنت في المضيق بالقرب من دولون، كنت ألحق بسيارة شحن. أذكر جيداً، كانت سيارة - غاز 51، وبالأصح لا ألحقها، بل كانت السيارة واقفة وثمة رجلان، كانا يعملان بإصلاح عطل في المحرك، وفجأة سار واحد منهما على مهل في منتصف الطريق، ورفع يده. توقفت، فاقترب مني شخص في ثياب

مبللة، وقد وضع فوق رأسه برنساً. كان عمره يقترب من الأربعين. له شاربان كثيفان عسكريان قام بقصهما قليلاً. وجهه عابس. أما عيناه فقد كانتا تنظران بهدوء.

- هل بالإمكان أن تنقلني أيها الأخ إلى قسم الآليات في دولون؟ توجه لي سائلاً، - عليّ أن أطلب جراراً، فالمحرك لدينا قد توقف كلياً.

- اجلس، سأنقلك، ربما بإمكاننا أن نفكر بطريقة ما، حتى نشغل المحرك؟ - اقترحت عليه وخرجت من الحجرة.

- ما الذي بإمكاننا أن نعمل، وهو لا يعطي إشارة نهائياً. أغلق السائق غطاء المحرك، وأجابني بكسل. لقد كان أزرقاً مع شيء من الاحمرار من البرد. يا له من مسكين، حتى أسنانه كانت تطرق ويرتجف بشدة! يبدو أنه ليس من السكان المحليين، ربما من العاصمة، يبدو عليه الدلال، وأخذ ينظر من حوله محتاراً. لقد حملوا بعض المواد من قسم الطرق في فرونزه. ماذا علينا أن نعمل؟ أخذت أفكر. ظهرت عندي فكرة طائشة، ولكن علي أن أنظر إلى المنحدر. السماء كانت ضبابية، والرؤية ضعيفة جداً، والغيوم تتلبد في الأسفل. ولكنني قررت، أما الفكرة لم تكن سهلة التنفيذ، ولكنها كانت بمثابة مهمة هجوم خطرة في الليل.

- كيف وضع الفرامل في سيارتك؟ - سألت السائق.

- انظروا ماذا يسأل هذا الإنسان!... هل يمكن السير بدون فرامل، يا ترى! أقول لك المحرك توقف، ولا يعمل نهائياً...

- هل لديك حبل جر؟

- يوجد!

- هاته إلى هنا، اربطه جيداً.

نظر الرجلان نحوي، وهما يشككان في عقلانية ما أنوي عمله، وهما لا يتحركان من مكانهما.

- هل جننت أيها الشاب؟ - قال السائق بهدوء.

هذا هو طبعي. لا أعرف، هل هذا جيد أم سيئ، ولكن إذا أردت أن أفعل شيئاً علي أن أفعله. إما أن أنفذ ما أردته، أو أموت وينتهي الأمر.

- اربط حبل الجر أيها الصديق! كلمة شرف، سوف أجرك! - أكدت على السائق. أما السائق فلم يصغ للأمر، ولوح بيده، وقال؛ وهو يلوذ بعيداً.

- لا، لن أوافق، ألا تعلم، إنه في هذه الأماكن، لا يجوز أن تجر سيارة أخرى؟ وعليك أن لا تفكر في هذه المخاطرة.

لقد غضبت منه، وكأنه رفض طلباً غالياً على نفسي، فقلت له: - يا لك من حمار! جبان!

نادى لرفيقه وتبين لي أنه كان خبيراً للطرق. هذا عرفته فيما بعد.

ونظر هذا الرجل نحوي، وقال للسائق:

- هات حبل الجر.

هنا، اشتد غيظه، وخرج عن طوره وقال:

- أنت ستتحمل المسؤولية، يا بايتيمير - أكاي.

- كلنا سنتحمل المسؤولية! - أجاب هو باختصار.

لقد أعجبني هذا، فمثل هذا الإنسان يستحق الاحترام مباشرة.

وهكذا سرنا، سياراتان يربط بينهما حبل جر. في بداية الأمر،

سارت الأمور على خير ما يرام. ولكن في الوادي، كان الطريق يصعد دائماً نحو الجبل بدرجة صعبة، وبعد ذلك طريق نزول ملتوٍ كالأفعى، أخذ المحرك في سيارتي يئن ويئن، ثم ضجّ، حتى أصبح دويه يصم الآذان، فقلت له: كلا، إنك تكذب، سآخذ منك كل شيء حتى النقطة الأخيرة. وكنت سابقاً ألاحظ أنه، وعلى الرغم من صعوبة الطريق في منطقة دولون، كانت لدى السيارة قوة احتياطية للجر لأن الحمولة كانت لا تزيد عن خمسين بالمئة من قدرتها الحقيقة، وكان يوضع فيها بعض الأحيان سبعين بالمئة من قدرتها، ولكني لم أفكر آنذاك أنه سنقع في مثل هذه المشكلة - أما الرغبة عندي في مساعدة الناس كانت أكبر من أي شيء آخر، وكان عليَّ أن أجر السيارة إلى المكان المطلوب، ولكن هذا لم يكن بالأمر البسيط، أخذت السيارة تهتز، وتضج، وشيء أسود أخذ يطير على واجهة الحجرة، حتى أصبحت المسَّاحات عاجزة عن التنظيف كلياً، وخاصة بعد أن ازداد المطر، حتى أصبحت المياه تسيل جداولَ من بين العجلات. وبدأت المنعطفات القاسية والمنحدرة. في واقع الأمر، أخذت أشتم نفسي في داخلي: لماذا عاندت وصممت على جر السيارة، وعسى ألا يحصل حادث وندمر السيارات والبشر، فرميت القبعة، ثم السترة الخارجية، ثم الجاكيت، والكنزة، وبقيت في القميص لوحده، والبخار يتصاعد من جسمي كما لو كنت في الحمام البخاري. وهل هذه مزحة: سيارة تجر سيارة محملة، زائد وزنها، وشيء جيد أن بايتيمير وقف على درجة الصعود، إلى جانب الحجرة، ونسق بين حركتي وحركة السيارة الخلفية، كان يوجهني بالكلام، ويوجه السائق الخلفي بحركات من يده، وعندما أخذنا نسرع في النزول، أخذ العرق يتصبب، وأخذت أفكر، لو حصل سوء سأقفز من السيارة بعيداً عن المصيبة. ولكن

السيارة كانت رائعة، وتحملت كالطائرة العملاقة عند التحليق نظرت إلى بايتيمير، فوجدت وجهه شاحباً أصفراً وكأنه من حجر أصفر، وثمة قطرات من الماء تنزل على وجنتيه، ومن شاربيه، ولكن نظراته كانت هادئة ومطمئنة.

بقي لنا صعود مرتفع واحد صعب للغاية، وإذا ما اجتزناه، فالنصر حليفنا. وفي هذه اللحظة نظر بايتيمير من النافذة محذراً:

- احذر السيارة التي أمامك! خذ يمينك.

أخذت اليمين، حيث كانت تنزل من الطريق الجبلي سيارة شاحنة، هذه كانت سيارة جانتاي! فأخذت أفكر: أي شيطان حمله إلى هنا الآن، وسوف يعاقبني المهندس في الأمن الصناعي، في حال ما وشى جانتاي، وهو أهل لذلك. اقترب أكثر، وأكثر، أمسكت المقود بكلتا يدي وها هو ينحدر إلى الأسفل، وينظر بعينين من تحت جبهته، ومررنا من جانب بعضنا كلياً، نظر جانتاي نحوي بنظرة، وكأنه يحاكمني فيها، ويعطيني العقوبة القصوى، وهو يهز رأسه متوعداً، وقد بدا غريباً في صلعته المضحكة. «فليأخذك الشيطان. - فكرت في قرارة نفسي، ثرثر بلسانك، طالما ترغب بهذا».

تجاوزنا ذروة الصعود، وأخذنا ننحدر تدريجياً في الطريق الملتوي إلى الأسفل، ثم طريق مستقيم، وبعد ذلك منعطف نحو حديقة محطة الطرق الرئيسية. وإلى هناك أوصلت السيارة. لقد قمت بجرها رغم الصعاب! أطفأت المحرك. وتنفست الصعداء وأخذت أشعر أنني فقدت القدرة على السمع، أما الطبيعة من حولي قد صمتت كلياً، وخرست. ولا صوت واحد. خرجت من حجرة السيارة، وجلست على الدرجة في أسفل باب الحجرة. بالكاد ألتقط أنفاسي، لقد أرهقت جداً، والهواء

في المنحدر ثقيل. ركض بايتيمير نحوي ووضع على كتفي السترة الدافئة، والقبعة على رأسي، وقدم السائق من السيارة الأخرى شاحباً، يتأرجح في مسيره، وكأنه قد فقد القدرة على الكلام، جلس أمامي القرفصاء، ومد لي علبة سجائره، فأخذت سيجارة، بينما كانت يدي ترتجف، دخنا سجائرنا، وعدنا تدريجياً إلى وضعنا الطبيعي. وعادت إليّ روحي، وعصفت في داخلي تلك القوة اللعينة.

- هههه! ضحكت وقلت، - شاهدت! - وربت على كتف السائق. أما هو فقد بقي في مكانه. ثم وقفنا ثلاثتنا على أرجلنا، وأخذنا نهنئ بعضنا بالسلامة، غامرين بعضنا كل واحد يضم الآخر، ويربت على ظهره، وكتفه. ونحن نقهقه مزهوين، ونصرخ بعض الكلمات المتفرقة تعبيراً عن فرحنا واحتفالنا الذي لم يتم كلياً بالسلامة...

هدأنا أخيراً، ودخنا سيجارة ثانية، لبست ثيابي، نظرت إلى ساعتي، وأسرعت قائلاً:

- لقد حان الوقت لذهابي!

عبس بايتيمير.

- كلا، تفضل إلى البيت، ستكون ضيفاً عندنا!

ولكن لا يوجد لديّ ولا دقيقة واحدة.

- شكراً! - كان بودي ولكنني لا أقدر، فمن الضروري أن أذهب إلى البيت، زوجتي تنتظرني.

- ربما تبقى معنا؟ لنشرب زجاجة كحول للسلامة! - أخذ يطلب مني السائق، كصديقين جديدين.

- اتركه! - قاطعه بايتيمير، - زوجته تنتظر. - قل لنا ما اسمك؟

- إلياس.

- رافقتك السلامة يا إلياس! شكراً لك، لقد أنقذتنا.

ودعني بايتيمير، وهو يقف على الدرجة، إلى جانب الحجرة حتى الطريق، وشدّ على يدي بصمت، وقفز عن الدرجة إلى الأرض.

عندما عدت محملاً إلى الجبل، نظرت من نافذة حجرتي، فكان بايتيمير ما يزال واقفاً على الطريق، يمسك قبعته في يده، وهو يفكر بشيء ما مطأطئ الرأس.

هذا كل شيء.

لم أتحدث لآسيل بالتفصيل عما حدث. وقلت لها فقط، إنني كنت مضطراً لمساعدة الناس على الطريق، ولهذا تأخرت، وأنا لا أخفي أي شيء عن زوجتي. ولكني قررت أن لا أحدثها عن هذا. فهي بدون مثل هذه الأحاديث قلقة دائماً عليَّ. وخاصة أنني قررت ألا أعيد مثل هذه التصرفات والتضحيات. لقد حدث هذا مرة واحدة في الحياة، جربت قواي مع جبل دولون، وكفى وتمنيت أن أنسى هذه القصة في اليوم التالي لولا أنه، وأنا عائد من الجبال قد ساء وضعي، وأصبت بحمى شديدة، آنذاك. وبصعوبة وصلت إلى البيت - وفوراً وقعت ولم أعد أذكر ما حدث، وفي رأسي تدور أوهام وصور مخيفة، وكأنني أجر السيارة عبر دولون. زوابع ثلوج ساخنة تلفني، وتحرق وجهي وكان وضعي صعباً للغاية، حتى أصبحت غير قادر على التنفس. وكأن المقود في يدي قد صنع من قطن: ألف وألف، وهو كالماء في يدي. أمامنا منحدر وادٍ عميق - لا نرى نهاية له، طارت السيارة عالياً، وأخذت تتدحرج في الفضاء وتضج بشدة، وتتوقف عن الدوران... ربما كان هذا المنحدر هو - «هوة» المرض. قدرت على تجاوزه في اليوم

الثالث فقط، حيث أخذت أتعافى تدريجياً، وبقيت يومين بعد ذلك في البيت، أصبحت أشعر بنفسي أحسن، أردت أن أقف، ولكن آسيل لم تسمح لي. وأجبرتني على البقاء في الفراش، أخذت أنظر إليها وأفكر: أنا المريض، أم هي؟ لا أعرف، فلقد بدا عليها التعب والإعياء، وبدت بقعاً زرقاء تحت عينيها، ونحفت كلياً، حتى أصبح بإمكان النسيم أن يزيحها من مكانها، ويرميها جانباً. زد على ذلك. أن الطفل أيضاً على يديها، فقلت في نفسي، كلا، لا يجوز هكذا، فلا أملك الحق أن أحمل الأمر أكثر ما يستحق، وكأنني لا أرى ما يحدث في الدنيا فمن الضروري أن يرتاح الإنسان قليلاً. قمت من الفراش، وأخذتُ أرتدي ثيابي.

يا آسيل! - ناديت زوجتي بمودة وهدوء لأن الطفل كان نائماً

- اتفقي مع جاراتك، أن يعتنوا بصمد، ريثما نذهب لرؤية فيلم في السينما.

ركضت نحوي، تداعبني، ثم دفعتني، حتى وقعت على السرير، وجاء رأسي على الوسادة. أخذت تنظر لي، وكأنها تراني لأول مرة، تحاول أن تمنع الدموع. ولكنها انهمرت، رغماً عنها، وأخذت تلمع فوق رموشها، وشفتاها ترتجفان، ووضعت آسيل وجهها على صدري وأخذت تبكي.

- ماذا حلّ بك، يا آسيل؟ ما لك؟ - شعرت بالحيرة فماذا أقول لها؟

- كم هي سعادتي كبيرة، أنك شفيت يا إلياس.

- وأنا أيضاً سعيد، ولكن لماذا القلق الشديد هكذا؟ مرضت قليلاً، وهذا شيء رائع. إنني كنت معك في البيت ومع صمد، لعبت

معه لأول مرة - أما ابني فقد أخذ يزحف، وقريباً سيمشي، إنه يستعد لذلك، وهذه الفترة جميلة من حياة الطفل. وإذا أردتِ الحقيقة، إنني على استعداد أن أمرض هكذا مرة أخرى! - أخذتُ أداعبها مازحاً.

- لا، لا أريد هذا! لا أريد! - أخذت آسيل تحتج، إذ شاهدت شدة مرضي.

هنا استيقظ الطفل، فحملته مباشرة بعد استيقاظه دافئاً. وهكذا لعبنا ثلاثتنا معاً، وقمنا بحركات مداعبة جنونية، أما صمد، فكان كالدب الصغير، يزحف إلى كل مكان ويتدحرج فوقنا.

- أترين، كم هو شيء رائع! - قلت لآسيل - أمّا أنت، فهل سترفضين؟ وقريباً سوف نذهب إلى أهلك في القرية، وأتصور أنهم سيسامحوننا. وخاصة بعد أن يشاهدا صمداً، سيحبونه، وينسون كل شيء مضى.

حقاً لقد كان عندنا نيّة أن نذهب إلى القرية، ونعتذر عن الخطأ، كما يجب أن يكون حسب العادات والتقاليد في مثل حالتنا هذه. ومن المفهوم أن والديها كانا غير راضيين عنا، وفي قلبيهما حزن وغضب كبيرين، حتى أرسلوا لنا خطاباً مع أحد سكان القرية وقدم إلى نارين أنهما لن يغفرا هذا التصرف لابنتهما، وقالا إنهما لا يرغبان أن يعرفا شيئاً عن حياتنا، ولكننا، كنا نأمل، أن كل شيء سيكون جيداً، وأن نتفق. وبالطبع عندما نذهب إلى أهل آسيل، سوف نطلب السماح والمغفرة.

ولكن كان من الضروري أن نحصل على مأذونية من العمل، وأن نجهز أنفسنا للسفر: علينا أن نشتري هدايا لكل الأقارب. ولم أرغب أن أذهب إليهم بيدين فارغتين.

في هذا الوقت كان قد بدأ الشتاء، ومن المعروف أن شتاء تيان شان شتاء قاسي، فيه الكثير من البرد والعواصف والثلوج، وانزياح ثلوج في الجبال. والمهام بالنسبة لنا نحن السائقين تزداد عبئاً، وكذلك بالنسبة لعمال الطرق، ففي هذه الأيام يقومون بعمليات مكثفة ضد العواصف والزوابع والانهيارات الثلجية في أماكن خطرة، مهددة بحدوث انهيارات ثلجية بين لحظة وأخرى. إذ يقومون بتفجيرها، ويوسعون الطرق وينظفوها، حقاً، إنه في الشتاء الماضي، كانت الأمور هادئة بالمقارنة مع السنوات الأخرى، وربما، لم ألاحظ أنا شخصياً، فالعمل لدي، ولدى السائقين الآخرين أكثر من أن يهتموا بالأخبار والجلوس أمام التلفاز، ليعرفوا ما يحدث في العالم. وهنا، أضافوا مفاجأة لمحطة السيارات السائقين. ولم أندم على قيامي بهذا، ولكن، ومن هنا، كما أعتقد، جاءت جميع المصائب التي أصابتني فيما بعد، إذ كان الأمر هكذا.

عدت، ذات يوم في المساء إلى محطة السيارات، وأعطتني آسيل صرّة صغيرة لزوجة علي بيك جانتورين، مررت إليهم في البيت، أعطيت إشارة، فخرجت زوجة علي بيك. ومنها عرفت أن إدارة محطة أتباشينسك الكهربائية قد أرسلت برقية مستعجلة يطلبون فيها بعض المعدات من المصنع، فسألتها على الفور:

- وأين علي بيك الآن؟

- كيف أين؟ - في محطة النقل. وكل الناس هناك، يقولون: إن القطارات قد وصلت.

اتجهت فوراً إلى هناك، وقررت أن أذهب لمعرفة حقيقة الأمر. وصلت إلى هناك، ومحطة النقل التي نعمل فيها موجودة في بداية

المضيق، عند المخرج باتجاه البحيرة. وهذه هي المحطة الأخيرة للسكك الحديدية أمام الجبال. وإلى هنا، ومن الجبال العالية وشعابها تزحف الرياح كثيفة وقوية وتهتز المصابيح الكهربائية فوق الأعمدة، وتثير بين السكك الحديدية الرياح الثلجية. وتتحرك محركات القطارات بحنكة حتى تنظم الفرغونات، حسب الأصول، وتصف على السكة الأخيرة الفرغونات التي تقوم الرافعات بإنزال الصناديق المميزة بدفعة خاصة. والمحزومة بشرائط معدنية وكتب عليها - حمولات إلى أتباش لبناء محطة أتباش الكهربائية. وكانت جهة البناء هناك كبيرة، وكنا قد نقلنا إلى هناك، بعض المعدات.

تجمعت سيارات كثيرة. ولكن لم تُحمل ولا سيارة بعد، وكأنه يتم انتظار شيء ما. ويجلس السائقون في حجراتهم، أو يجلسون على الدرجات عند أبواب الحجرات. والبعض كان يتكئ على الصناديق التي تحوي المعدات، متقين شرَّ الرياح الباردة، قمت بإلقاء التحية، ولكن لم يجب أحد، الجميع صامتون، ويسحبون سجائر البابيروسا، وينفثون الدخان الكثيف. جانباً كان يقف علي بيك فتوجهت إليه.

- ماذا حلّ بكم هنا؟ استلمتم برقية؟

- نعم، يرغبون بتشغيل المحطة الكهربائية، قبل الوقت المقرر.

- وماذا في الأمر؟

- علينا أن ننجز العمل.. انظر كم من المواد مكدسة للبناء والتجهيز إلى جانب السكة، وما زال الكثير سيصل لاحقاً. فمتى سننقل كل هذا؟ والناس ينتظرون هناك، ويضعون الثقة فينا!... وكل يوم لهم ثمين جداً!...

- وأنت ما بك تصب جام غضبك عليّ! فما ذنبي هنا؟

- وماذا يعني هذا، كأن الأمر لا يخصك! هل أنت من دولة أخرى؟ أو لا تفهم بأي عمل يتم تكليفنا؟

- لقد جنّ جنونك، بحق الإله! - قلت له، وابتعدت جانباً، وأنا أستغرب هذا.

في هذا الوقت اقترب أمانجولوف. مدير محطة السيارات، كان يدخن سيجارته مع أحد السائقين. وينظر إلينا جميعاً.

- هكذا أيها الرفاق - قال هو مبتدئاً الكلام، - سوف أتصل بالوزارة، ربما يرسلون لنا من يساعدنا، ولكننا لن ننتظر وصول المساعدة. فكيف لنا أن نعمل! لا أعرف...

- هنا يصعب جداً أن يقرر الإنسان، أيها الرفيق أمانجولوف - أجاب واحد من بين السائقين فكمية المواد التي يجب نقلها، هي كبيرة للغاية، فأكثر من صندوق أو صندوقين لا تحمل كل من سياراتنا. وحتى لو نظمنا حملة نقل على امتداد اليوم الكامل، بلا استراحة، فلن نتمكن قبل بداية الربيع من أن ننهي هذا العمل.

- في هذا بالذات ينحصر الأمر، - أجاب أمانجولوف. - ولكن يجب تنفيذ العمل، أما الآن فانصرفوا إلى بيوتكم، وعلى الجميع أن يفكروا، ما العمل!

جلس هو في سيارة «غاز» وانطلق، أما من جماعتنا، فلم يغادر أحد من مكانه. ومن هناك من الزاوية المقابلة، وفي الظلام، قال شخص، دون أن يتوجه لأحد ما:

- يا للشيطان! من جلد غنمة واحدة، لا يمكن تفصيل فروتين! كان من الأفضل أن يتم التفكير مسبقاً! - نهض، وأطفأ عقب

سيجارته، ثم توجه نحو سيارته. ودعمه شخص آخر. فالأمر لدينا هكذا كما يقول: عندما نصل إلى نقطة النهاية تقريباً تهب القيادات وتنادي: - أين أنتم أيها الأخوة السائقون؟ رجاء أنقذونا!

وهنا هبّ كثير من الحاضرين ينتقدونه:

- هذا عمل عام، وأنت، يا إسماعيل تثرثر بلا معنى، كامرأة شمطاء في سوق الخضار! أما أنا، فلم أتدخل في النقاش. ولكنني تذكرت كيف سحبت السيارة في الجبل، وفار الدم في عروقي.

- ما بكم تعقدون الأمور! خرجت من بين جماعتي، وتقدمت إلى الأمام - يجب إضافة قاطرة أخرى إلى السيارات!

لم يتحرك أحد، ولم يهتم أحد بما قلته، أي أن هذا الكلام بعيد عن الواقع، وينطق به واحد مجنون. أما جانتاي فقد صفر بهدوء، وقال:

- هل رأيتم؟ - لقد عرفته من صوته.

ووقفت أنظر من حولي. وأردت أن أتحدث عن تلك الحادثة التي حصلت معي. إذ خرج من بين الناس الموجودين شخص عملاق، نزل من فوق صندوق كبير، وأعطى كفوف العمل لجاره، واقترب مني، وشدني من قبة سترتي إليه حتى أصبحنا وجهاً لوجه. والأنف مقابل الأنف، ثم قال بصوت عال:

- هيا! تنفس بشدة في وجهي!

- هها، هها! - تنفست بشدة في وجهه.

- إنه لم يشرب مطلقاً! - قال باستغراب، وترك ياقة سترتي.

- هذا يعني، أنه مجنون! - قال له صديقه. وأفضل شيء نفعله أن نذهب إلى سياراتنا، وننطلق. نهض الجميع، واستعدوا للخروج.

ولكني تأثرت جداً، إذ لم أكن، ذات مرت في حياتي محط سخرية، وكما يقال: إن القبعة قد احمرت فوق رأسي من العار، فقلت لهم:

- توقفوا! إلى أين أنتم سائرون! - أخذت أركض بين السائقين.

- إنني أتكلم جاداً فيما أقول. فمن الممكن أن تضاف قاطرة إلى كل سيارة...

اقترب مني أحد السائقين القدامى المحترمين، وقال وهو غاضب قليلاً:

- عندما بدأت العمل كسائق هنا، كنت أنت صبياً صغيراً لا تعرف شيئاً من الدنيا، وتلعب بدون لباس. إن جبال تيان - شان ليست ساحة للرقص. فأنا آسف لوضعك الغبي، فلا تُضحك الناس عليك...

ضحك الناس، وأخذوا يتفرقون إلى سياراتهم، عند ذلك، صرخت بأعلى صوتي، حتى عمّ كل المحطة:

- نساء أنتم، ولستم بسائقين!

من العبث أنني فعلت هذا، فالجميع وقفوا ضدي، وهذا ما اتضح فيما بعد.

توقف السائقون، ثم هجم الجميع علي.

- ماذا حلّ بك؟ هل تريد أن تلعب بمصائر حيوات الناس؟

بينما قال جانتاي:

- يا لك من مُجدد! لقد أردت أن تحصل على جائزة لقاء مبادرتك هذه!

اختلطت الأصوات، وتعالت صاخبة. وحشرني السائقون بين الصناديق، ولم يبق إلا أن يطحنوني بقبضات أيديهم، فأخذت لوحاً من الخشب كان ملقياً على الأرض.

- ابتعدوا! - صرخ واحد بشدة، وأخذ يدفع الناس يمنة ويسرة. كان هذا صديقه علي بيك.

- اصمتوا قليلاً! - قال هو بأعلى صوته. - وأنت يا إلياس تكلم بوضوح وبسرعة أكثر!

- ماذا عليّ أن أقول! - أجبت وأنا ألتقط أنفاسي، - لقد قطعوا كل أزراري ومزقوا سترتي. - لقد قدت سيارة شحن، إلى قسم الطرق خلف سيارتي، وكانت السيارة محملة، هذا هو كل شيء.

صمت الشباب محتارين في أمرهم.

سأل أحد السائقين وهو يشكك في كلامه:

- وهل نجحت في جر السيارة خلفك؟

- نعم عبر كل جبال دولون، وحتى الواحة.

- يا لك من عظيم! - قال آخر بصوت مستغرب.

بينما اعترض ثالث: - إنه يكذب!

- الكلاب تكذب. هذا جانتاي قد رآني. أين أنت يا جانتاي؟

- قل! تكلم الحقيقة! أتذكر عندما التقينا في الجبل؟...

ولكن جانتاي لم يقف، ولم يجب، وكأنه شقّ الأرض، واختفى في قلبها بلا أثر. ولكنهم، لم يرغبوا آنذاك بسماع رأي مهما كان. وبدأ حوار، ولقد توجه البعض نحوي لتصفية الحساب. ولكن واحد من المشككين، قال لهم كلاماً، وأقنعهم على الفور.

- لماذا، الثرثرة عبثاً! - قال هو بكآبة. - من الممكن أن يقوم أحد ما، بعمل ما، في ظرف ما، هذا ممكن نحن لسنا أولاد. فبالنسبة للطرق التي نسير عليها، يمنع منعاً باتاً أن نجر قاطرة ومقطورة خلفنا، ولن يسمح أحد بهذا. وحاول أن تقنع المهندس المسؤول

عن السلامة المهنية بهذا الاقتراح، فإنه ساعتئذٍ سيلقنك درساً لن تنساه بسهولة. وليس لديه استعداد أن يدان في المحكمة من أجلك... هذا كل ما في الأمر.

- اترك هذا الهراء - أخذ الكلام شخص آخر - وماذا يعني - لن يسمح! هذا هو إيفان ستيبانتوفيتش في عام الثلاثين هو الذي افتتح الطريق عبر الجبال، ولم يقل له أحد ممنوع، وفعل، دون أن يسمح له أحد، وحقق نجاحاً، وهذا هو ما زال على قيد الحياة...

- نعم، لقد حصل الأمر، - أكد إيفان ستيبانوفيتش. - ولكن الآن لا أستطيع القول بلا شك، فالأمر كان في الصيف، ولم يسر أحد مع قاطرة ومقطورة، زد على ذلك، الآن هو وقت الشتاء...

أما علي بيك فقد كان كل الوقت صامتاً، أما الآن فقال:

- يكفي نقاشاً. بغض النظر عن أن هذه المسألة صعبة، فالتفكير ضروري. ولكن ليس هكذا، كما تفكر أنت، يا إلياس: نحن في منطقة تيان - شان الصعبة، وهات قاطرة ومقطورة وانطلق، هذا غير ممكن، فمن الضروري التفكير بكل شيء كما يجب، ويجب التشاور، والقيام بتجارب عملية، وبالكلام يصعب على أحدنا أن يقنع الآخر.

- أنا بإمكاني أن أثبت! - أجبت بحدة. - وما زلتم تفكرون، وتبصّرون، فأنا سأثبت عندها سوف تقتنعون!

لكل إنسان طبيعة خاصة! ومن الضروري توجيههم، ولكن ليس في كل مرة ينجح الدرس. جلست خلف المقود ولم أشعر أنني أسوق سيارة، أو أمشي فوق طريق. لقد كان الألم يغلي في داخلي، والحزن قد خنقني كلياً. وطعم المرارة في فمي، والتأثر من الإهانة.

ومع كل دقيقة كان حب الذات يدفعني أكثر وأكثر حتى أثبت لهؤلاء الحقيقة! وأعلم كيف من الممكن ألا يثقوا ويصدقوا كلام الإنسان! وأعلمهم، كيف يسخرون مني. وأعلم كيف عليهم أن ينظروا نحوي باحترام!... وعلي بيك للأسف، أيضاً مال معهم! فما في الأمر من مشكلة، من الضروري الاستعداد، ودراسة الاقتراح، وثم التجريب! إنه ذكي، ويحسب الحساب للمستقبل! وهذا الأمر لا يهمني. فببساطة أنفذ ما في رأسي، وأفرك أنوفهم جميعاً!

أوقفت السيارة في الكراج. وقمت بصيانتها كما يجب. ولقد كان الضغط على روحي شديداً، وبلا نهاية، وكنت أفكر بشيء واحد: أن أعمل مع قاطرة ومقطورة على طريق دولون، وعليَّ أن أقوم بهذا، مهما كلف الأمر ولكن من سيعطيني مقطورة؟

ومع هذه الأفكار أخذت أمشي في الساحة حنقاً. كان الوقت متأخراً، وفقط، ثمة ضوء واحد كان يبرز من خلال نافذة غرفة الإدارة. توقفت: المدير! فقط المدير بإمكانه أن يؤمن ذلك! واليوم من يقوم بمهمة المدير المناوب هي كاديتشا. وهذا شيء جيد، فهي لا ترفض طلباً لي، لا، لن ترفض الطلب. وحسب الواقع، فهي لن ترتكب جريمة، زد على ذلك، إنني، أنا الذي سأقوم بهذا. بل على العكس تماماً، فهي ستساعدني فقط على فعل مبادرة جيدة وضرورية للجميع.

اقتربت من غرفة الإدارة. وأدركت لحظتها أنني منذ زمن طويل لم أدخل إلى هذه الغرفة، وكنت نادراً، ما أتكلم مع كاديتشا من خلال النافذة، بل كنت، أدخل من الباب، وأجلس. أما الآن فقد وقفت أمام الباب حائراً، وفجأة فتح الباب، وبدت كاديتشا عند العتبة. فقلت لها:

- أنا قادم إليك يا كاديتشا! حسناً، إنني وجدتك.

- أما أنا، فقد أنهيت عملي، وخارجة الآن.

- فلنذهب إذن سوية، سأرافقك إلى البيت.

رفعت كاديتشا حاجبيها ونظرت مستغربة الأمر، مع شيء من عدم الثقة، ثم ابتسمت:

- لنذهب، ونرى ما في الأمر.

عندما خرجنا من المدخل الرئيس، كانت قد عمت الظلمة في الشارع، ومن جهة البحيرة كانت تسمع بعض الاصطدامات للأمواج، كانت الرياح قوية وباردة. أمسكت كاديتشا بمرفقي، وضمت نفسها إليَّ بشدة، وهي تتقي شر البرد.

- هل تشعرين بالبرد؟ - سألتها بمودة.

- معك أجد الدفء دائماً! - قالت مازحة.

فقبل دقيقة، كنت أعاني من القلق والحيرة والاضطراب، أما الآن، لا أعلم لماذا هدأت!

- غداً، متى ستخرجين للعمل يا كاديتشا؟ - سألتها بهدوء. فأجابت: - في الوردية الثانية. وماذا تريد؟

- عندي عمل مهم جداً، ويتعلق الأمر بك كلياً...

في البداية لم تكن راغبة في الاستماع، ولكنني أخذت أقنعها، وتوقفنا عند ضوء مصباح الشارع عند الزاوية.

- آه، يا إلياس! - قالت كاديتشا، وهي تنظر إلي عيني بقلق كبير - من العبث أن تقوم بهذا!

أدركت جيداً أنها سوف تحقق لي هذه الرغبة، كما طلبت. فأخذتها من يدها، وقلت مؤكداً:

- صدقيني جيداً! كل شيء سيكون على ما يرام، اتفقنا؟

تنهدت بعمق وقالت:

- ماذا بإمكاني أن أفعل معك! - وهزت رأسها بالموافقة.

غمرتها بحركة لا إرادية بكلتا يدي، من كتفيها شاكراً.

- كان عليك أن تلد محارباً، وتصبح فارساً مقداماً! فإلى الغد!

ضغطت على يدها بقوة ورجوتها أن تجهز الأوراق للمهمة عند المساء وقلت لها: هل فهمتي؟

- لا تسرع! - قالت هي، دون أن تترك يدي، ولكنها استدارت فجأة وقالت: - حسناً، اذهب.. أنت اليوم، إلى السكن الجماعي؟

- نعم، يا كاديتشا!

- ليلة سعيدة!

في اليوم التالي، كان كل شيء في المحطة هادئاً. أما الناس فكانوا في محطة السيارات قلقين: فهؤلاء الموجهون، كانوا وما زالوا حسب طبيعتهم، لا يتكلمون حسب الموضوع، ويتدخلون في كل قضية، ويقدمون التقارير. فكم كانت المشاكل معهم كثيرة! وستكون أكثر! ولكن ما كان يثير الدهشة ما حصل الآن.

كنت واثقاً بسيارتي، ولكنني تأخرت حولها متظاهراً، وكأنني أعمل على إصلاح بعض الأشياء فيها. كان عليّ أن أمضي الوقت حتى تخرج كاديتشا للعمل في الوردية الثانية. لم يتحدث أحد معي، ولم يذكّرني أي منهم بما كان البارحة، وكنت أعلم أن الناس مشغولون بقضاياهم الخاصة: الكل كان يسرع للمرور عبر بوابة التدقيق الميكانيكي لسيارتهم، والتوجه نحو الدور تحت الرافعة، وتعويض الوقت الفائت. أما الحنق في روحي، لم يخرج منها بعد.

عبرت من بوابة التدقيق الإلكتروني في النصف الثاني من اليوم. ولقد غادر الموجهون فعم الهدوء والفراغ، وفي أعماق ساحة المحطة كانت تقف المقطورات تحت السماء المكشوفة وكنا، غالباً ما نستخدمها عندما نقوم بنقل المواد عبر الطريق المستوية، ولمساحات قصيرة. اخترت مقطورة - صندوق سيارة شحن عادي، على أربع عجلات. وهذا كل شيء في جوهرها. أما بالنسبة للقلق فلقد كان كبيراً.. عند ذلك، لم أكن أعرف، ماذا ينتظرني، فسرت بهدوء إلى السكن الجماعي، وكان من الضروري أن أتناول طعاماً كاملاً، وأرقد ساعة، فالطريق صعبة للغاية. ولكنني لم أكن قادراً على النوم، وتقلبت من جنب إلى جنب، وعندما اقترب الغروب، عدت إلى محطة السيارات.

كانت كاديتشا في مكانها، كل شيء جاهز. أخذت المهمة، وأسرعت إلى الكراج «الآن بدأ الجد»! أخذت السيارة، واقتربت كما يجب من المقطورة، وحولت المحرك على الدورات الدنيا، خرجت بهدوء، نظرت من حولي، لم يكن أحد بالقرب مني. وتسمع قرقعة المخارط في قسم الإصلاح، وكذلك ضجيج المياه في البحيرة. السماء بدت صافية، ولكن النجوم لم تظهر بعد. وإلى جانبي كان يضج المحرك، ويتناغم مع دقات قلبي: أردت أن أدخن سيجارة، ولكني قذفت بالسيجارة بعيداً، بعد أن سحبتها من العلبة، وقلت في نفسي: فيما بعد.

استوقفني الحارس الليلي عند البوابة: - قف، إلى أين؟

- للتحميل، أيها الأخ، - قلت وأنا أجتهد في أن أكون لطيفاً معه، وغير ميّالٍ، - وهذه ورقة السماح بالمغادرة.

أخذ الحارس يدقق في الورقة، ولكنه لم يفهم شيئاً لسوء ضوء المصباح.

- أرجوك لا تؤخرني، أيها الأخ! - قلت له بعد أن فرغ صبري.

- العمل لا يسمح بالانتظار.

تم التحميل بشكل جيد، ووضع الحمل الكامل: صندوقان في الصندوق، وصندوقان في المقطورة لم يقل أحد، ولو كلمة واحدة - حتى أنا استغربت الأمر. خرجت إلى الشارع الرئيس، وعندها أخذت سيجارة، وشرعت أدخن. جلست بشكل مريح. وأنرت المصابيح، وانطلقت بعد أن ضغطت على السرعة كما يجب، أخذت الظلمة تسود في كل مكان من حولي، وعلى أفق الطريق أمامي. كان الطريق خالياً تقريباً، ولم يكن أي شيء يعيقني حتى أرفع السرعة حتى النهاية. فانطلقت السيارة بسهولة، وحتى لم تُسمع أية قرقعة زائدة للمقطورة. حقاً إنه عند المنعطفات، كنا نميل إلى جانب الطريق، ولف المقود كان أصعب من العادة، لأننا غير معتادين على هذا. وعندما كنت، أعود للوضع الطبيعي، كنت أفكر «حقاً إنك صعب يا دولون! هكذا تخيفني يا أتباشي»! صرخت مخاطباً ذاتي، ونظرت إلى المقود، كما ينظر الفارس إلى قمة رأس حصانه. وعلي أن أسرعه، ما دام الطريق سلساً، وحسبت الوقت، وتوقعت أن أكون في منتصف الليل في لحظة الانقضاض على جبل دولون.

وكنت في بعض الأحيان أجتاز المسافات التي وضعتها كنقاط ارتكاز. قبل الوقت المحدد. ولكن عندما بدأت السلسلة الجبلية، كان علي أن أسير بحذر أكبر. وهذا ليس، لأن المحرك عاجز عن تأدية دوره كما يجب، وليس الصعود، بقدر الهبوط. لأن المقطورة

تشكل ضغطاً في السير، إذ تميل يمنة ويسرة. وفي المنحدرات، كان يدفع السيارة، وأخذت تزعجني في الهبوط على مهل. وكنت مضطراً، لتغيير السرعة، في كل دقيقة أحياناً، وأضغط على الكوابح كثيراً، وأن أحرك المقود يمنة ويسرة. في بداية الأمر شجعت نفسي، وحاولت ألا ألاحظ، ولكن، وفيما بعد، أخذ هذا يقلقني جداً، ويثير حنقي. فكم هي كثيرة هذه المرتفعات خلال الطريق، وكذلك المنخفضات، وهل خطر على بال أحد أن يحصيها! ورغم كل ذلك لم أستسلم. فلم أخف من أي شيء، ولكنني تعبت جداً. «لا ضير في الأمر! - كنت أقنع نفسي. - الآن سأمنح نفسي استراحة، قبل المنحدر. لا، هذا غير ضروري!» ولكنني لم أفهم، لماذا أشعر بأن وضعي الآن، أسوأ عما كان عليه في الخريف، عندما سحبت السيارة.

اقترب جبل دولون، وكانت أشعة المصابيح تخترق الظلام وتقشعه عن الصخور الجبلية والوديان والمنحدرات، بينما كانت الصخور المغطاة بالثلوج تمثل في الأعالي على حافتي الطريق، وفجأة أخذت تبدو أمام الشعاع رقع ثلج كبيرة. أخذت أفكر «ربما هذه الرقع ناجمة عن قوة الريح التي تقذفها من الأعلى». ولكن هذه الرقع الثلجية أخذت تلتصق بالزجاج، وتزحف للأسفل، وهذا يعني أن الثلج يتساقط... وكان في البداية ليس كثيفاً فأخذت أفكر «هذا الذي ينقصني الآن!» - أخذت أشتم من بين أسناني، وشغلت المساحات.

بدأت بعض المنحدرات الصعبة الأولى، فأخذ المحرك يغني أغنيته المعروفة. ويدوي حسب إيقاع طبيعي، ويجتاز الظلمة عبر الطريق. وأخيراً، تم اجتياز المرتفع. أما الآن فأمامنا طريق طويل عبر المنحدر. أخذ المحرك يضج، وسارت الآلية إلى الأسفل، وأخذت تذهب

يمنة ويسرة، ومن جهة لأخرى، أحسست من خلف ظهري، كيف تجن المقطورة، وكيف تدفع السيارة إلى الأمام، وأسمع كيف تضج بشدة، وكيف يصوّت المعدن عندما يصل فوق حامل الجر. ويؤدي هذا إلى آلام جهنمية في ظهري، ويزيد من الآلام الغريبة بين كتفي. والعجلات لم تعد تتصاع للفرامل، كالعادة وتنزلق فوق طبقة الثلج التي تكونت فوق الطريق، وهكذا سبحت السيارة، وهي تهتز بمجملها، وقد فلت المقود من يدي لبرهة، وأخذت تنزلق عبر الطريق مع شيء من الانحراف، أدرت المقود على الجهة الأخرى، وأوقفت السيارة. فلم أعد قادراً على متابعة الطريق. لم يبق لدي شيء من القوة. أطفأت المصابيح، وأطفأت المحرك. وتجمدت يداي، حتى أصبحتا، وكأنهما يدين صناعتين، ألقيت بثقلي إلى المسند الخلفي وسمعت ساعتئذٍ كيف كنت أتنفس بحشرجة ملموسة. جلست هكذا عدة دقائق، التقطت أنفاسي، ودخنت سيجارة. ومن حولي كانت تعم الظلمة، والهدوء القاتل. وفقط كانت الرياح تعصف وتصفر، مذكرة بوجودها، وهي تخترق الشقوق إلى حجرة القيادة، وكان يصعب علي التفكير بما سيحصل لاحقاً، ومن هنا تذهب إلى الأعلى سيربنتين، مرحلة بعد الأخرى. إنه عذاب حقيقي للمحرك ولي على حد سواء - وهذا هو التفاف دائم، حسب انحناء الجبل، وبطرق متعرجة. أما الآن فلا يجوز لي أن أستغرق بالتفكير طويلاً. فالثلج يتساقط.

شغلت المحرك. فانطلقت السيارة بحركة ثقيلة صعوداً عبر الجبل، صككت على أسناني، وبدون استراحة تجاوزت سيربينتين عقدة، بعد عقدة، واحدة بعد الأخرى، انتهت السيربينتين، وجاء دور النزول الملتوي وكان الطريق مستقيماً، سوياً حتى المنعطف إلى قسم

الرقابة، وبعده يأتي آخر قسم من المنحدر. كان النزول صعباً للغاية، في هذا الطريق المستقيم، والذي امتد ما يقارب من أربعة كيلومترات، أخذت أزيد من السرعة، وأطلقتها على نفس السرعة نحو المرتفع، قطعت مسافة جيدة، إلى الأعلى، والأعلى... أما السرعة إلى الأعلى لم تستمر لفترة طويلة، فأخذت السيارة تخفف من سرعتها، محذرة ببطء السرعة. حولت السرعة إلى الدرجة الثانية، ثم إلى الأولى، واستندت إلى مسند الظهر، وأنا أمسك المقود جيداً ومن بين الغيوم المتتابعة، بدت النجوم واضحة للعيان. ولم تعد السيارة تتجاوز المكان الذي وصلت إليه. وأخذت العجلات تدور في مكانها، ثم استدارت جانباً، فضغطت على السرعة حتى الأخير، وأنا أصرخ بصوت لا يشبه صوتي مخاطباً السيارة: - استمري، قليلاً، - بقي قليلاً! اصمدي!

أخذ المحرك يضج ويتحول من الأنين الطويل، إلى الاهتزاز الغريب في المكان، وانطفأ، وأعطى إشارة التوقف ثم صمت... أخذت السيارة تنزلق إلى الأسفل، والفرامل لم تساعدني. وأخذت تنزلق من الجبل تحت ضغط المقطورة، وأخيراً توقفت بحدة بعد أن اصطدمت بصخرة. عم السكون. فتحت الباب، ونظرت من الحجرة. وهكذا بان الأمر! هذه المقطورة اللعينة هبطت في ترعة تصريف المياه. والآن لا توجد قوة تخرجها من هذه الورطة. خرجت عن طوري، وكأنني فقدت الوعي، فشغلت المحرك ثانية. ودست على السرعة، فصوتت العجلات بقوة، ولكنها لم تتحرك من مكانها. فخرجت من الحجرة، وركضت إلى المقطورة، فكانت العجلات قد غرقت في مكانها في ترعة التصريف فما العمل الآن؟ لم أعد أدرك أي شيء على الإطلاق، فتوحشت، وأبرزت كل ما بداخلي من شر، وهجمت إلى المقطورة،

وأخذت أدفعها بيدي، ثم دخلت إلى تحتها وأخذت أرفعها بكتفي حتى أحرك العجلات ولو قليلاً، ولكن كل هذه المحاولات كانت من باب العبث، وأخذ كتفي يؤلمني جداً، وأصابني دوران من شدة التشنج حتى أصبحت أعوي كالوحش، ولكن المقطورة لم تهتز. فوقعت منكباً على وجهي وأخذت أتخبط بالوحل والثلج، أخذت أبكي بمرارة من الغضب. ثم نهضت متأرجحاً، اقتربت من السيارة، وجلست فوق درجة الصعود إلى الحجرة.

جاء من بعيد صوت محرك سيارة، ومصبحان أخذا يقتربان مني بعد أن نزلا من المنحدر المعتدل. ولم أعلم من هو السائق. وإلى أين اقتاده مصيره في هذه الليلة، ولكني خفت، وكأن هذه المصابيح سوف تخطفني بعيداً. وهرعت كالسارق إلى المقطورة، وقذفت إلى الأرض وصلة الجر، ثم صعدت إلى الحجرة، ودست على السرعة وانطلقت عبر الطريق تاركاً المقطورة في مكانها.

وفي هذه اللحظة أخذت أشعر بشيء خطير يطاردني من مكان لآخر. وبدا لي الأمر، وكأن المقطورة تتدحرج بسرعة خلفي، ولم يحصل حادث معي، لأنني كنت أعرف هذا الطريق عن ظهر قلب.

عند الفجر وصلت إلى محطة النقل، ولم أدرك معنى تصرفاتي، وكنت كالمجنون، أخذت أطرق الباب بكلتا يدي، فتح الباب، ولم أنظر إلى آسيل، ودخلت إلى البيت، وكنت ملطخاً بالوحل من رأسي حتى أخمص قدمي، أتنفس بصعوبة، وجلست على شيء رطب. وتبين أنه كومة ثياب الطفل المغسولة لتوها. مددت يدي إلى جيبي كي أتناول سيجارة. فوجدت هناك مفتاح تشغيل المحرك. فقذفت به بعيداً، وضعت رأسي على وسادة، وهدأت قليلاً محطماً، ملطخاً بالوحل. أما

آسيل التي كانت حافية القدمين، فقد وقفت جامدة بالقرب من الطاولة، ولكن ماذا كان بإمكاني أن أقول لها؟ رفعت آسيل المفاتيح عن الأرض، ووضعتها على الطاولة.

- تحب أن تغتسل؟ لقد سخنت المياه من البارحة - قالت هي بهدوء.

رفعت رأسي بهدوء. أما آسيل المذهولة فقد وقفت أمامي في قميص نومها، وهي تضم يديها النحيفتين إلى صدرها. أما عيناها الخائفتان فكانتا تنظران إليَّ بقلق وتعاطف كلي.

- لقد تركت المقطورة في منطقة المنحدر، - قلت بصوت غريب لا لون ولا طعم له.

- عن أي مقطورة تتحدث؟ - لم تفهم هي ما أقول.

- مقطورة حديدية، خضراء اللون، رقمها 38-02، وهل يهم ما لونها! - أجبت بصوت غاضب وعال. - سرقتها، تفهمين! سرقتها!

تأسفت آسيل بهدوء، وجلست على حافة السرير، ثم سألت:

- ولماذا هذا؟

- كيف لماذا؟ - أغاظني عدم فهمها لي. - لقد قررت أن أحمل حملاً إضافياً على المقطورة عبر المنحدر! مفهوم! فكرت بأنني سأثبت صحة رأيي... ولكنني خسرت الرهان!...

جلست مطأطئ الرأس، مستنداً إلى كف يدي. والتزمنا الصمت مدة من الزمن. نهضت آسيل بعد تفكير، وأخذت ترتدي ملابسها بكل جدية.

- ما لك تجلس؟ - قالت آسيل بصوت جاد.

- وماذا علي أن أفعل؟ - سألتها بهدوء.

- اذهب إلى محطة السيارات.

- كيف سأظهر هناك من دون المقطورة؟

- هناك ستشرح كل شيء.

- ماذا نابك، هل جننت! - قلت بصوت عال، وأخذت أذرع الغرفة، ذهاباً وإياباً. - وبأية عينين سأعيد المقطورة إلى هناك؟ وأقول معتذراً، سامحوني، لقد أخطأت! وأزحف على بطني، وأرجوهم أن يسامحوني؟ كلا، لن أفعل! وسأدعهم يفعلون ما يريدون. وأنا سأبصق على ما سيكون، وعلى ما سيقررون!

وعلى أثر صراخي العالي، استيقظ الطفل في سريره، وأخذ يبكي. أخذته آسيل. ورفعته على يديها، ولكنه أخذ يبكي بصوت أشد.

- يا لك من جبان! - قالت آسيل بهدوء، ولكن بصوت واثق وخشن.

- ماذا تقولين؟ وبدون وعي، انطلقت نحوها، بكلتا قبضتي، ولحت بيدي أمام وجهها، ولكنني لم أجرؤ على ضربها. لقد استوقفتني عيناها المفتوحتين بشكل واسع. حتى رأيت فيهما ملامح وجهي المخيف.

دفعتها بخشونة جانباً، ومشيت نحو العتبة، وخرجت. وأغلقت الباب بشدة.

في الشارع عمَّ نور الصباح وتحت ضوء النهار، ظهر كل ما كان البارحة في حياتي بلون أسود قاتم ومقيت، ولا يمكن إصلاحه. وحتى الوقت الحاضر، لم أر سوى مخرج واحد: أن أنقل الحمل الموجود على السيارة، وفيما بعد لا أعلم...

في رحلة العودة، لم أعرج إلى البيت، وليس لأنني تخاصمت مع آسيل. ولكنني، لم أرغب أن يراني أحد بعد الفشل، ولم أرغب برؤية أحد: ولا أعرف كيف الأمر بالنسبة للآخرين. أما بالنسبة لي، فمن الأفضل أن أبقى وحيداً، ولا أحب أن أظهر أمام الناس مع مصيبتي ومن يهمه أمري؟ فأقول لنفسي: "اصبر، إذا كان بإمكانك، حتى تهدأ النار في كيانك...".

خلال الطريق، أمضيت ليلتي في بيت المسافرين. وأصابني كابوس، وكأنني أبحث عن المقطورة في المنحدر. وشاهدت أثر المقطورة، ولكنها غير موجودة، وأركض باحثاً، أين اختفت المقطورة، ومن سحبها من مكانها...

أما المقطورة عندما عدت لنفس المكان، لم تكن في مكانها التعيس. وعلمت فيما بعد: مرّ علي بيك من هناك وشاهد المقطورة، فقام بسحبها إلى محطة السيارات.

وعلى أثر المقطورة عدت في الصباح. وخلال هذه الأيام الثلاثة لقد اسود وجهي، ونظرت إلى المرآة الصغيرة في أعلى الحجرة، فلم أعرف ملامح وجهي.

في المحطة كانت الأمور تجري كالعادة، ولكن بدا الأمر، وكأنني غريب كلياً، اقتربت من البوابة خائفاً وغير واثق من نفسي، ودخلت بهدوء إلى الساحة، وتوقفت بعيداً عن الحارس، في الزاوية البعيدة. ولم أخرج من الحجرة مباشرة، وجلت بنظري في كافة الجهات. وترك الناس أعمالهم، وأخذوا ينظرون إليَّ. آه، لو كان لي أن أذهب إلى جهة ما لخرجت الآن، دون أن أنظر خلفي، ولكن لسوء الحظ، ليس لي من مكان آخر ألجأ إليه! ولهذا خرجت من الحجرة.

جمعت كل ما لدي من قوة إرادة وسرت عبر الساحة إلى الإدارة. وحاولت جاهداً أن أحافظ على هدوئي. ولكن، وفي حقيقة الأمر. أسير كمخطئ أمام الجميع. وأعلم أن الجميع يقذفوني بنظرات عابسة، زد على ذلك، أن الجميع لم يهتموا بقدومي، ولم يسلم أحد علي. وأنا، لو كنت مكانهما، لتصرفت هكذا، بالضبط.

تعثرت عند العتبة، وكان قلبي قد تعثر أيضاً: لقد نسيت كل ما يخص كاديتشا، وإنني بتصرفي أسأت لها!

في الممر ظهرت أمامي وجهاً لوجه، من جهة الحائط لوحة إعلانية «البرق». كلمة «العار» مكتوبة بأحرف كبيرة، وتحتها، تم رسم المقطورة، المتروكة في الجبال...

استدرت جانباً. احتقن الدم في وجهي وارتفعت حرارتي، وكأنني صفعت صفعة قوية. دخلت إلى الإدارة. كانت كاديتشا تتكلم بالهاتف. وعندما رأتني وضعت السماعة.

- خذي هذه! - وضعت فوق الطاولة تلك المهمة الشريرة.

نظرت كاديتشا إليَّ بحزن وكآبة. وأخذت أفكر، عسى ألا تصرخ، وعسى ألا تبكي. «وفيما بعد، وفي مكان آخر، ليس الآن فقط!» كنت أتمنى هذا منها في داخلي. وهي أدركت هذا، ولم تقل شيئاً.

- هل كان من ضجّة حول الموضوع؟ - سألت بهدوء.

هزت كاديتشا رأسها موافقة.

- لا بأس! - لفظت هذا من بين أسناني، محاولاً أن أشجعها.

- لقد ألغوا رحلاتك كلياً، - قالت كاديتشا بامتعاض.

بينما سأل وهو يبتسم ساخراً:

- كلياً؟ مرة وإلى الأبد؟

- لقد أرادوا أن يحولوك كلياً، إلى قسم الصيانة... ولكن الشباب دافعوا عنك... إذ تم تحويلك مؤقتاً إلى الرحلات المحلية. ادخل إلى المدير، فهو قد طلب حضورك.

- لن أذهب! فليقرروا بدوني ما شاؤوا، لن آسف على أي شيء.

خرجت ومشيت منكس الرأس، عبر الممر. وثمة إنسان سار من الجهة المعاكسة. أردت أن أتجنبه، ولكن علي بيك وقف في طريقي.

- كلا، عليك أن تقف! - سحبني إلى الزاوية. ونظر محدقاً، وأخذ يتحدث بحدة، وبهمس قاس: - وماذا فعلت يا بطل، أثبت ما أردت؟ أثبت أنك ابن كلب!

- أردت أن أفعل شيئاً جيداً، قلت بصوت هادئ.

- إنك تكذب! أردت أن تتميز. كنت تنطلق من أنانية ذاتية لمصلحتك. وهذا ما ثبت من خلال كل تصرفاتك، وحطمت كل شيء، اذهب الآن وبرهن، بعد هذا، أنه بإمكانك أن تسير مع مقطورة في الجبال! يا لك من مغفل، وحشري!

ربما هذه الكلمات، التي قيلت لي الآن، قد أجبرت غيري على التفكير ملياً في الأمر، أما بالنسبة لي، فالأمر سيان، فلم أفهم شيئاً، ورأيت فقط الغضب، وعدم الرضا. فهل أنا حشري، وأطمح أن أتميز عن غيري، وأن أحصل على المجد؟ فهذا كله غير صحيح!

- ابتعد عن طريقي! - دفعت علي بيك جانباً. - فبدونك لا أطيق حتى نفسي!

خرجت إلى الشرفة، فهبت ريح باردة وثاقبة، حملت معها ثلجاً ناعماً كالغبار عبر ساحة المحطة. مر الناس من جانبي، ويحدقون فيّ

شزراً. فما كان علي أن أعمل؟ وضعت يديَّ في جيبي وأخذت أخطو خطوات حثيثة للخروج. كان الجليد قد تجمد في بقع المياه المتوضعة في الساحة، وأخذ يتكسر ويختلط مع التراب. وتحت رجلي شاهدت علبة حلوى فارغة، فقذفت بها خارج البوابة إلى الشارع بكل ما أوتيت من قوة، وانطلقت أنا خلفها.

تجولت في شوارع المدينة طيلة النهار وبدون هدف. وتوقفت حيث لا مصلحة لي أن أتوقف، وفي بحيرة إيسك كول كانت البواخر والقوارب تتأرجح فوق المياه المتحركة وهي تداعب حبال الربط.

ثم استيقظت في مقهى، وأمامي زجاجة كحول ذات سعة النصف ليتر، وإلى جانبها بعض الطعام. وأدركت أنني غبت عن الوعي بعد شرب الكأس الأول، وأخذت الآن أحدق بغباء إلى الأسفل، مطاطئ الرأس.

- ما بك، قد اكتئبت كلياً أيها المحارب؟ - سمعت صوتاً يخاطبني بشيء من الود، ممزوج ببعض الضحك، رفعت رأسي بصعوبة، فوجدت أمامي كاديتشا، التي ابتسمت وجلست معي خلف الطاولة، وقالت:

- ما بك، هل يصعب عليك أن تشرب لوحدك؟ ها أنا قد حضرت، فلنشرب سوية!

صبت كاديتشا الفودكا في كأسين، وقدمت لي أحدهما، وغمزت بطرف عينها، وقالت مشاكسة: وكأننا قدمنا إلى هنا حتى نجلس ونشرب ببساطة، - أمسك الكأس!

- ما بك يا كاديتشا فَرِحة؟ - سألت مع شيء من عدم الرضى.

- وماذا تريد، أن أبكي؟ فمعك أشعر بنفسي، وكأنه لا يهمني

أي شيء، يا إلياس! وأنا كنت أفكر، أنك أقوى من هذا، وعلى كل حال لا يهمك الأمر، فالحل لدينا! - قالت كاديتشا بهدوء مع شيء من الضحك، واقتربت مني أكثر دقت كأسها بكأسي وهي تنظر لي بعينين سوداوتين لطيفتين.

شربنا، ثم دخنت سيجارة، وكان الأمر قد أصبح أفضل قليلاً. فابتسمتُ لأول مرة خلال هذا اليوم!

- أنت رائعة، يا كاديتشا! - قلت لها وشددت على يدها.

فيما بعد، خرجنا إلى الشارع، كان الليل قد حلَّ وعمت الظلمة، ومن جهة البحيرة كانت تأتي ريح شديدة، كانت تهز الأشجار والمصابيح. حتى شعرت أن الأرض كانت تهتز تحت أرجلي. أمسكت كاديتشا بمرفقي. وأخذت تساعدني في المسير، وأخذت تعتني بوضعي، ورقعت ياقة معطفي حتى لا أبرد.

- أشعر أنني مخطئ بحقك، يا كاديتشا! - قلت لها، وأنا أحس بشعور المخطئ أمامها وكذلك الامتنان لموقفها معي، - واعلمي أنني لا أرضى أن تكوني خاسرة في نهاية الأمر... فأنا المسؤول عن كل ما حدث وسأجيب عن كل شيء...

- أرجوك أن تنسى هذا، يا عزيزي الغالي! - أجابتني كاديتشا برقة. - يا لك من إنسان لا تعرف الراحة! دائماً تندفع للأمام، إلى أين تخاطر بنفسك، لا أعرف، وهذا يؤلمني لأنك عزيز علي. فأنا كنت كذلك، ففي الحياة، لا يمكنك أن تملك وتحقق كل شيء، فخذ ما هو ممكن من الحياة... ولماذا تعاند القدر؟...

- انظري إن هذا يقيّم كما يفهمه الإنسان! - عارضت رأيها، ثم فكرت، وقلت: - وربما أنت على حق يا كاديتشا...

توقفنا عند البيت الذي تعيش فيه، فهي منذ زمن بعيد تسكن وحيدة، ولقد افترقت عن زوجها منذ فترة ليست بقصيرة.

- ها أنا قد وصلت، - قالت كاديتشا.

توقفت أنا، ولم أغادر بسرعة، فلقد كان شيء قديم يربط فيما بيننا، والآن لم أرغب أن أذهب إلى السكن العمالي العام، حقاً إنها إنسانة جيدة، ولكنها تبدو قاسية للغاية في بعض الأحيان، ولهذا، وبلا إرادة يحاول الإنسان أن يبتعد عنها.

- بماذا تفكر يا عزيزي؟ - سألت كاديتشا. - هل تعبت؟ لا أريد أن تذهب بعيداً بأفكارك؟

- لا بأس، سأصل بطريقة ما. إلى اللقاء.

أخذت يدي، وشدّت عليها، ثم قالت:

- آه، آه، لقد تجمدت يداك! توقف، سأبعث الدفء فيك!

- قالت كاديتشا، ثم دست بيدي في فتحة صدر فستانها. وأخذت تضمني من حين إلى آخر إلى صدرها، فلم أستطع أن أسحب يدي منها، ولم أقدر على مقاومة هذه العواطف الجياشة، وتحت يدي، أحسست نبضات قلبها المتسارعة، الذي كان يدق مطالباً بما كان يشتاق إليه، منذ زمن بعيد. لقد كنت ثملاً، ولكن ليس للدرجة التي تجعلني لا أفهم أي شيء. فأخذت كاديتشا يدي بحذر، وأخذت تتساءل:

- هل ستغادر حقاً؟

- نعم.

- إذن، وداعاً لا لقاء بعده! تنهدت كاديتشا، واستدارت بسرعة. وأغلقت بوابة بيتها وغرقت في الظلمة. كان بإمكاني أن

أغادر أيضاً، ولكن بعد أن مشيت عدة خطوات، وجدت نفسي بالقرب من بوابة كاديتشا. وأنا لا أعرف كيف حصل هذا. وهناك كانت كاديتشا تنتظرني، فقذفت بنفسها على رقبتي، وأخذت تغمرني بكلتا يديها، وتقبلني على شفتي.

- ها أنت قد رجعت! - همست في إذني، - أخذتني من يدي، وقادتني إلى بيتها.

استيقظت في الليل، ولم أعرف، أين أنا موجود، وكأن رأسي يؤلمني جداً. كنا ننام سوية. أما كاديتشا، فقد كانت نصف عارية، تغمرني وتتنفس بسلاسة عند كتفي بحرارة فائقة. قررت أن أنهض، وأهرب من هنا بسرعة. تحركت ببطء، أما كاديتشا، فقد غمرتني بقوة بدون أن تفتح عينيها. وهي تقول:

- لا تذهب! - هكذا كانت ترجوني، ثم رفعت رأسها، ونظرت في الظلام إلى عيني، وقالت بصوت متهدج وهامس: - أنا الآن لا أقدر بدونك... أنت لي! أنت دائماً كنت رجلي المفضل!... ولا أريد أكثر من هذا، ولا أريد أن أعرف أي شيء آخر، وفقط أن تحبني أنت، يا إلياس! فأنا لا أطلب شيئاً غير ذلك... ولن أتراجع عن هذا نهائياً، هل تفهم! لن أتراجع!... وأخذت كاديتشا تبكي. وسالت دموعها فوق وجهي. لم أغادر. خلدنا للنوم عند طلوع الفجر واستيقظنا، عندما كان الضوء قد دخل عبر زجاج النافذة في الصباح. ارتديت ثيابي على عجل، وثمة شعور غمر جسمي ببرد قرمزي، وثمة قلق قد ضغط على قلبي بقوة. وأخذت أدخل الأزرار في ثقوب فروتي القصيرة، وخرجت إلى الساحة واختفيت بسرعة خلف البوابة، وهناك كان إنسان قد سار نحوي مباشرة، يرتدي معطفاً ملوناً. آخ، لو كانت في عينيَّ رصاصتان

لأطلقتهما على الفور إليه! هذا كان جانتاي ذاهب إلى العمل، وهو يعيش ليس بعيداً من هنا. جمد كل منا لثوان، وأنا، تصنعت وضعاً، وكأنني لم أره، فاستدرت بسرعة، وسرت نحو محطة السيارات. أما جانتاي فلقد سعل سعلة مصطنعة ذات معان كثيرة. كنت أسمع وقع خطاه، وهي تصوّت فوق الثلج، على نفس المسافة مني. وهكذا سار خلفي حتى محطة السيارات.

لم أذهب إلى الكراج، بل سرت مباشرة إلى الإدارة. إلى غرفة المهندس الرئيسي، حيث كان يتم الاجتماع الصباحي لخمس دقائق [1]. وكانت الأصوات تصدح عالياً، لقد رغبت أن أدخل إلى هناك. وأجلس على مصطبته إلى جانب إحدى النوافذ، وأضع رجلاً فوق رجل، وأدخن سيجارة، وأستمع كيف يتناقش السائقون فيما بنيهم، ويتشاورن بدون خلفية شريرة! ولم أتصور في يوم من الأيام، أن هذه الرغبة، من الممكن أن تكون حلماً للإنسان. ولكنني لم أقرر أن أدخل، إنني لم أتجابن، كلا، ففي كياني كان ذلك الشر، الذي يؤدي إلى اليأس، والعناء الفارغ. زد على ذلك، الحيرة القاتلة بعد تلك الليلة التي أمضيتها مع كاديتشا... وحتى الناس، كما اتضح، لم يحاولوا أن ينسوا فشلي. وخلف الباب كان الحديث يدور عني وثمة شخص ما قد صرخ:

- ماذا وراء هذا المتسكع! يجب أن تتم محاكمته، وأنتم ما زلتم تسايرونه! وتكفيه الوقاحة أن يصرح، بأنه فكر بطريقة صحيحة! بينما ترك المقطورة سائبة في الجبال!...

---

[1] في أيام الاتحاد السوفيتي. كان كل مسؤول يجمع عماله التابعين له ويعطيهم التوجيهات اللازمة للعمل، ويستمع إلى أسئلتهم ومقترحاتهم لمدة خمس دقائق، وهكذا سمي «اجتماع الخمس دقائق» - (المترجم).

ولكن قاطعه شخص آخر، قائلاً:

- حقاً، لقد رأينا من أمثاله الكثير؛ يا له من متذاكي فوق العادة. أراد أن يأخذ الجوائز بالثرثرة، وكأنه ينقذ المحطة من أزمة عمل... ولكن محاولاته هذه قد باءت بالفشل.

تناقش الناس فيما بينهم، واتفقوا. أما أنا فسرت بعيداً: ليس من سماتي أن أقف خلف الباب وأستمع لما يقال في بيوت غريبة.

سمعت أصواتاً قادمة من خلفي، فأسرعت الخطا، بينما كان الشباب مستمرين بالنقاش، جاء صوت علي بيك يقول لرفيقة مبرهناً على خطئه خلال مسيرهما:

- بالنسبة لفرامل المقطورة، سوف نصنعها هنا في المحطة. وليس من الصعب أن نمد خرطوماً من "الكومبريسر"، وأن نضع دواسات!... انظر هذا إلياس، أم أنا مخطئ؟ - إلياس، قف! - صرخ بي علي بيك.

لم أتوقف، وسرت نحو الكراج، أما علي بيك، فقد لحق بي، وأمسكني من كتفي.

- يا لك من شيطان! أتفهم أنك أقنعتني فجهز نفسك يا إلياس! هل تحب أن تسافر معي مساعداً؟ في رحلة تجريبية مع مقطورة!

امتلكني الشر: لقد قرر أن يساعدني، ويأخذ صديقه الفاشل معه كي يجره كمساعد! أمسكت يده، وأنزلتها عن كتفي، وقلت له: - اذهب، أنت ومقطوراتك إلى...

ماذا حلّ بك يا إلياس، لماذا تعاند هكذا؟ فأنت قد أخطأت... وأنا قد نسيت كل شيء. فلم يقل لك فالودكا* شيرايف أي شيء؟ - كلا لم أره، وماذا في الأمر؟

---

* فالودكا - اسم دلال وتحبب من اسم فلاديمير. - (المترجم).

- كيف ماذا؟ فأين أنت تتسكع؟ فآسيل تنتظر على الطريق، وتسأل كافة السائقين، وهي تعاني قلقة، وأنت!...

أحسست وكأن ركبتاي قد كسرتا تحت قامتي، وكم كان لهذا الكلام وقع قاس لا يطاق، ولم تعد روحي تطيق أي شيء، وكنت على استعداد أن أموت في هذه اللحظة في مكاني. أما علي بيك فتابع يمسكني، ويهزّ يدي ويشرح التجهيزات اللازمة للمقطورة.. أما جانتاي فكان يقف جانباً، ويستمع دون كلام.

- اتركني وشأني! - سحبت يدي منه، وأي شيطان أجبركما أن تقتربا مني؟ يكفي! فلم تعد تلزمني أية مقطورة. ولست على استعداد أن أذهب مع أحد.. هل هذا مفهوم لك؟

غضب علي بيك، وأخذ يدغدغ التجعدات فوق وجهه، وقال:

- أنت ابتدأت، وكسرت الخشب - وتريد أن تكسر العظام بيننا؟ أليس كذلك؟

- افهم كما تريد، وحسب ما يقول لك عقلك.

اقتربت من السيارة، ويداي ترتجفان، ولم أفهم شيئاً. ونزلت إلى الحفرة تحت السيارة، واستندت إلى جدار الطوب، حتى أريح رأسي وأبرده.

- اسمع يا إلياس! - سمعت همساً فوق أذني.

رفعت رأسي: فمن جاء الآن أيضاً؟ كان هذا جانتاي، الذي تقدم وجلس فوق الحفرة، كالفطر وهو ينظر نحوي بعينيه الخبيثتين كالمكوك.

- أنت أجبته كما يستحق، يا إلياس!

- عمن تتكلم؟

- أقصد علي بيك، العضو النشيط! إنه قد جاءنا كالحصوة على الضرس! التزم الصمت لثوانٍ، ثم تابع: يا له من مجدد!

- وأنت يا جانتاي، ما علاقتك بالأمر؟

- لي علاقة، فأنت نفسك، قد فهمت، بأن السائقين لا يهتمون كثيراً بالمبادئ، وهي لا تفيدهم. ونعرف كيف يتم الأمر: رفعت درجة المكافأة، وقصرت المسافات، ويطالبونك بأن تضاعف جهدك. بينما يطبقون التسعيرة على الكيلومتر، وعلى ثقل الحمل المنقول، فأي شيطان يجبرني على العمل إذا كانت جيبتي خالية؟ فالمجد ليوم واحد خلال الاحتفال، وفيما بعد، ما العمل؟ نحن غير غاضبين منك، وحافظ على موقفك...

- من تقصد بنحن؟ - سألته وبصورة هادئة، - نحن - هذا أنت؟

- وأنا لست وحدي، - غمز جانتاي بعينه.

- أنت تكذب، يا لك من شخص تافه! سوف أسير دائماً مع مقطورة... رغماً عنك وعن أمثالك - سأضع كل إمكانياتي لأحقق ما أبغي، أما الآن - اذهب من هنا على عجل! فسأجد الوقت المناسب لك!

- لا، لا، ألم تلاحظ أنك تجاوزت الحدود! - هدد جانتاي.

- فأنا أعرفك على حقيقتك... فالأمر لا يهمني! أما ما يخص ذلك الذي أعرفه عنك - عش حياتك، ما دمت قادراً...

- آه يا لك من وقح!... صرخت بأعلى صوتي، وأعطيته ما يستحق بكل قوتي تحت فكه السفلي. وبقي بعد هذا في مكانه، كما كان جالساً على حافة الحفرة، وقلب إلى الجهة الأخرى، وتدحرجت قبعته على الأرض. خرجت من الحفرة، واندفعت نحوه، ولكن جانتاي أسرع في الوقوف، وقفز جانباً. وصرخ، حتى سمعه كل من في الساحة:

- يا لك من أزعر! مجرم! تريد المقاتلة؟ ستجد من يؤدبنك! خفت من النتيجة، أخذت تفرغ غضبك!...

ركض الناس من كل الجهات، وجاء علي بيك أيضاً.

- ما في الأمر، لماذا ضربته؟

- من أجل الحقيقة! - أخذ جانتاي يثرثر بأعلى صوته! - لأنني قلت له الحقيقة وجهاً لوجه!... إنه سرق المقطورة، وتركها في الجبال، وأساء للعمل، وعندما أخذ الناس يصلحون خطأه، أخذ يقاتلني؟ الآن وأصبح الأمر غير مربح له، لقد خسر المجد!...

توجه علي بيك نحوي، شحب لون وجهه، وأخذ يتنفس بصعوبة ثم دفعني على صدري، وقال:

- يا لك من لئيم! أخذت تنتقم، وتثأر لسوء تصرفك في الجبل! لا بأس، فنحن بدونك سنمضي قدماً، وبدون أمثالك من الأبطال!...

التزمت الصمت، ولم تكن لدي القدرة أن أقول أي شيء، لقد اهتزت كل مشاعري للكذب الوقح من جانب جانتاي، ولم أعد قادراً على قول كلمة واحدة.. بينما كان ينظر الرفاق نحوي عابسين.

يجب علي أن أغادر من هنا بسرعة.. صعدت إلى سيارتي، وانطلقت من محطة السيارات.

في الطريق، توقفت عند المخزن المخصص للمسافرين وشربت كمية من الكحول لا بأس بها، ولكن لم يكف، حتى يعدل المزاج فتوقفت في مكان آخر وشربت كأساً كاملاً (مئتي غرام)، ثم انطلقت، وأخذت السيارة تنهب الشارع نهباً. وبدت الجسور تتعاقب بالتتالي، وكذلك أخذت إشارات الطرق تتعاقب بسرعة، وكذلك مصابيح السيارات السائرة من جهة أخرى، أصبح المزاج أفضل من ذي

قبل «إيه! - أخذت أفكر، - فليذهب الجميع إلى الشيطان. فماذا؟ ألا يكفيني أن أجلس خلف المقود، وأذهب حيثما شئت، وها أنا أعمل بلا معوقات، أما كاديتشا... ولماذا أتجاهلها.. هل هي أسوأ من الأخريات؟ إنها شابة جميلة، وهي تحبني، ولن تبخل بروحها من أجلي، وهي جاهزة أن تفعل أي شيء من أجلي.. يا لي من مجنون، لا يقدر المعروف!».

ذهبت إلى البيت في المساء، وقفت عند الباب، أتأرجح ثملاً، ونصف الفروة معلقة على كتف واحد، ومتدلية حتى الأرض، فأنا غالباً ما أخلع كم الجاكيت أو الفروة أو السترة الأيمن، حتى أقود السيارة بارتياح، دون معوقات. وهكذا جرت عندي عادة منذ صغري، عندما كنت صبياً، أقذف بالحجارة، على كل شيء أراه.

هرعت آسيل نحوي مرتابة، وأخذت تسألني:

- ماذا حلّ بك يا إلياس؟ - ولكن، وفيما بعد، كما يبدو، قد أدركت حقيقة الأمر، - لماذا تقف عند العتبة؟ هل تعبت وبردت؟ اخلع ثيابك واغتسل!

أرادت مساعدتي، ولكنني دفعتها بعيداً عني بصمت. وخير وسيلة للدفاع هي الهجوم وكان علي أن أخفي خجلي بالخشونة، سرت في الغرفة متعثراً بالأشياء في طريقي، وأسقطت على الأرض بعض الأغراض، ثم جلست متعباً على الكرسي.

- ماذا حصل، يا إلياس؟ - جلست آسيل تستشف من خلال النظر إلى عيني واقع الأمر.

- وأنت لا تعلمين ماذا حصل؟ - أحنيت رأسي، ومن الأفضل ألا أنظر. وجلست انتظر، حتى تبدأ آسيل بتأنيبي، وتعود لتلعن نصيبها

وحظها في هذه الدنيا، وأنا كنت جاهزاً لسماعها حتى الأخير، ولن أدافع عن نفسي أمامها، ولكنها التزمت الصمت، وكأنها غير موجودة في الغرفة. رفعت عيني حذراً. أما آسيل فقد كانت تقف بالقرب من النافذة، وتدير ظهرها لي، وعلى الرغم من أنني لم أر وجهها، أدركت أنها تبكي. وثمة شفقة حادة أقبضت على قلبي بشدة.

- هل تعلمين، أريد أن أقول لك، يا آسيل، - بدأت الكلام بتردد. - أريد أن أقول... ثم التزمت الصمت. فلم تكن لدي الشجاعة أن أعترف. كلا، لم أقدر أن أوجه لها مثل هذه الطعنة الحادة. لقد أشفقت عليها، وكان عليَّ ألا أفعل هذا... - كما يبدو يا آسيل، لن يكون بمقدورنا قريباً، أن نذهب إلى أهلك في القرية. ولقد حولت الحديث باتجاه آخر. - سنذهب فيما بعد، في وقت لاحق. الآن ليس الوضع مناسب لهذا...

- لنؤجل هذه المسألة، فالأمر غير ملح... - أجابت آسيل. مسحت عينيها واقتربت مني. - أنت الآن استرح، ولا تفكر بهذا يا إلياس. فكل شيء سيكون على ما يرام. فكر الآن بنفسك، لقد تغيرت كلياً، وتبدو غريباً، حتى أنني لا أعرفك، يا إلياس...

- لا بأس! - قاطعتها، وقد قلقت نسبياً، وكأنني تنازلت روحياً، أكثر من اللازم. - تعبت جداً. أريد أن أنام.

بعد يوم من هذا، وعندما كنت عائداً من مهمة التقيت علي بيك في الناحية النائية من السلسلة الجبلية. كان يسير، وخلفه مقطورة، لقد انتصر على جبل دولون.

عندما رآني، توقف، وخرج من حجرة سيارته، وأخذ يلوح بيده.

أما أنا فقد خففت السرعة بينما استمر علي بيك واقفاً على الطريق فرحاً، ومحتفلاً بافتخار، إذ كان يقول مبتسماً:

- مرحباً، يا إلياس! انزل، تعال لندخن سيجارة معاً.

توقفت، فشاهدت شاباً يجلس خلف المقود في حجرة سيارة علي بيك، كسائق ثاني. وقد لُفت سلسلة حديدية على عجلات السيارة، وكانت للمقطورة كوابح خاصة بها، وهذا يلاحظه الإنسان بسرعة، ولكنني لم أقف، وفكرت في قرارة نفسي، أنت تمكنت من انجاز هذا فهذا شيء جيد! أما أنا، فاتركني وشاني، ولا تقترب مني.

- قف، قف! - أخذ يركض علي بيك خلف سيارتي. - يوجد أمر، يجب أن نتكلم توقف، يا إلياس! يا لك من شيطان، ماذا حل بك؟... لا بأس، تصرف كما تشاء... أخذت أسرع في سيارتي. ناديني حتى تشق نفسك. لا توجد لدينا معك أية أعمال مشتركة. فعملي قد احترق كلياً، فأنا لم أتصرف بشكل جيد، ولقد فقدت الثقة بعلي بيك كصديق مفضل. فهو قد كان على حق، كان محقاً في كل شيء، والآن أتفهم الأمر جيداً. ولكن في ذلك الوقت لم أتمكن أن أسامحه، حيث تمكن بكل بساطة، وبسرعة من تحقيق ذلك الشيء الذي كلفني حرق الكثير من أعصابي، والكثير من العمل، والضغط النفسي.

كان علي بيك على درجة عالية من التفكير السليم، وبكلمة إنه شاب جدي وعملي. فهو لن يذهب إلى الجبال كفدائي كما فعلت أنا. وفعل ما هو ضروري. إنه قاد السيارة مع سائق آخر. وكان بإمكانهما أن يتبادلا العمل في قيادة السيارة خلال الطريق، وأن يتم اجتياز الوادي والمنحدر بقوتين متعاقبتين طازجتين. ففي الجبال تكون

النتيجة إيجابية، أو سلبية حسب قوة المحرك، من جهة، وأيدي، وإرادة الإنسان من جهة أخرى. زد على ذلك، أن علي بيك تمكن مع مساعده أن يختصر الوقت مرتين. لقد درس كل هذا. ووضع كوابح إضافية مستقلة للمقطورة ومرتبطة بالكومبريسور الأساسي للسيارة. ولم ينس السلاسل البسيطة التي يمكن لفها على العجلات الرئيسية. وبشكل عام، أنه قاد المعركة مع المنحدرات بكل الأسلحة، اللازمة للمعركة، وليس بالصراخ أورا [1] فقط.

وهكذا، وعلى أثر علي بيك، قام السائقون الآخرون بقيادة سياراتهم مع المقطورات. واتضح أنه من الضروري، - كما هو دائماً - أن يبادر شخص ما بالخطوة الأولى. وفي هذا الوقت وصلت الكثير من السيارات الإضافية من محطة السيارات المجاورة لمساعدتنا في تنفيذ المهمة. وهكذا، وخلال أسبوع، ونصف الأسبوع، كانت تيان شان تئن تحت ضجيج عجلات السيارات ليلاً، نهاراً وبكلمة، ومهما كان الأمر صعباً، فلقد حققنا طلب إدارة المحطة الكهربائية المسائية في الوقت اللازم، ولم نعجز أو نضعف أمام المهمة الصعبة، لقد عمل الجميع، وعملت معهم أيضاً.

إنني الآن، أتحدث عن هذا بهدوء، وبعد أن مضت سنوات كثيرة، واستقر كل شيء. وفي تلك الأيام الحارة، لم أصمد فوق السرج، ولم أوجه حصان الحياة كما يجب... ولكنني سأتابع كل شيء حسب التسلسل.

وصلت إلى محطة السيارات، بعد اللقاء مع علي بيك، بعد حلول الظلام. ودخلت إلى السكن الجماعي، ولكنني، وخلال الطريق،

---

[1] أورا - كلمة روسية، يلفظها المحاربون عند تحقيق النصر في معركة ما، أو مهمة. وتستخدم الكلمة في الاحتفالات الوطنية، والعروض العسكرية. - المترجم.

عرجت إلى المقهى وكنت خلال هذه الأيام الماضية أرغب رغبة جامحة أن أشرب وأشرب حتى أفقد الوعي، وحتى أنسى كل ما كان في الآونة الأخيرة، وأن أغفو غفوة لا قاع لها. شربت كثيراً، ولكن الفودكا لم تؤثر عليَّ تقريباً. خرجت من المقهى أكثر قلقاً وحساسية مفرطة ومكتئباً بلا حدود. فتوجهت في منتصف الليل إلى المدينة أسير بلا هدف في شوارعها وطرقاتها، وأخيراً قادتني قدماي إلى شارع بيريغوفوي إلى بيت كاديتشا.

وهكذا جرت العادة. كنت أتأرجح بين نارين، في النهار أعمل خلف المقود، وفي الليل كنت أذهب إلى كاديتشا. فكنت أشعر معها بأريحية أكثر، وهدوء كلي، وكأنني كنت أختفي بعيداً عن ذاتي، وعن الناس، وعن الحقيقة. وبدا لي أن كاديتشا وحدها تفهمني جيداً وتحبني. ومن البيت، كنت أجتهد للسفر على جناح السرعة، آه، يا آسيل، يا عزيزتي الغالية آسيل! لو كانت تعلم أنها، وبثقتها العمياء فيَّ. وبنقائها الروحي قامت بطردي بعيداً عن البيت. فأنا لم أكن قادراً على المخادعة. وأنا أعلم، أنني لا أستحقها، كما لا أستحق الاهتمام الكبير من جانبها نحوي، ولا أستحق ما قدمته لي. وكنت أذهب إلى البيت فاقداً للوعي، ثملاً حتى النهاية. أما هي فلم توجه لي أية إساءة، أو إدانة. وحتى الوقت الحاضر لم أفهم، لماذا كان هذا: شفقة من جانبها علي، أو ضعف إرادة، أو على العكس. تفهم لوضعي، واتزان، وثقة في الإنسان؟ نعم، بالطبع، أنها كانت تنتظر، وتثق، بأنني سأعود إلى وضعي الطبيعي، وأتغلب على الضعف في كياني، وأعود إلى سابق عهدي، وكما كنت سابقاً وعلى كل حال، كان من الأفضل لو أنها شتمتني، وأجبرتني أن أقول لها كل

الحقيقة. ربما لم تعرف، ولم تتصور ماذا كان يجري معي في هذه الأيام. وكنت أشفق عليها، وكنت أؤجل الحديث معها كل يوم إلى الغد، وإلى المرة القادمة، وهكذا لم أصل إلى موعد أقوم فيه بمهامي من أجلها، ومن أجل حبنا، ومن أجل أسرتنا...

في المرة الأخيرة، استقبلتني آسيل فرحة، ونشطة بكل حيوية، وقد احمرت وجنتاها شباباً وألقاً، وعيناها كانتا تلمعان وتشعان جمالاً. فسحبتني كما كنت في الفروة النصفية، وأنا أنتعل الجزمة إلى الغرفة مباشرة.

- انظر، يا إلياس! إن صمداً أخذ يقف على رجليه!

- ماذا تقولين! أحقاً هذا؛ أين هو؟

- انظر إليه - إنه تحت الطاولة!

- هكذا يحب الزحف على الأرض.

- الآن ستراه! تعال يا بني، قف على رجليك حتى يراك بابا! أسرع، أسرع يا صمد!

فهم صمد بشكل ما، ما تريده أمه منه، فخرج من تحت الطاولة، وهو يستخدم أطرافه الأربعة وتمسك بطرف السرير، وبصعوبة قصوى تمكن من الوقوف باستقامة، ثم ابتسم ابتسامة شاب ظريف، وهو يتأرجح على رجليه الناعمتين الضعيفتين.

ومع هذه الابتسامة الرجولية، وقع فوق الأرض فركضت إليه، وغمرته بكلتا يداي وضممته إلى صدري، وكان يتنفس بهدوء، ومن فمه يفوح أريج حليب الرضاعة الذي لا ينسى أبداً. وكم كانت هذه الرائحة، غالية وعزيزة على قلبي، وكان صمد برائحته البريئة هذه غال، وقريب إلى قلبي، كآسيل نفسها.

- ستخنقه، يا إلياس، احذر! - أخذت آسيل ابنها وهي تتساءل - أتشاهد كيف يقف، فماذا تقول؟ اذهب واخلع ثيابك. ولن يمض وقت طويل حتى يصبح كبيراً، وعند ذلك ستبدأ ماما العمل. وكل شيء سيكون جيداً، وكل شيء سيسير على ما يرام، أليس كذلك يا بني، نعم؟ وأنت... - نظرت آسيل نحوي نظرة حزينة مع شيء من الابتسام. جلست على كرسي، وأدركت، أنها ضمنت كل ما أرادت قوله في هذه الجملة القصيرة، كما عبرت عما كانت تخزن في قلبها خلال تلك الأيام الماضية. وفي هذه الجملة كان عتابها، ورجاءها وأملها، والآن لم يكن أمامي إلا أن أخبرها بكل ما حدث معي، أو أن أسافر وقررت أنه من الأفضل أن أسافر، فهي سعيدة للغاية بحضوري، ولا تشك بأي شيء. نهضت واقفاً من على الكرسي، وقلت لها:

- علي الآن أن أسافر.

سألت آسيل قلقة: - إلى أين؟ أنت اليوم لن تبقى هنا أيضاً؟ فاشرب الشاي على أقل تعديل وبعدها يمكنك أن تفعل ما تشاء!

- ليس باستطاعتي الآن. - قلت لها بارتباك، - ينبغي عليّ أن أغادر الآن، فأنت تعرفين طبيعة العمل عندنا...

كلا، ليس العمل السبب، الذي أجبرني على مغادرة البيت. فدوري في السفر غداً في الصباح.

صعدت إلى حجرة السيارة، وهبطت على مقعدي على عجل، وأنيت من أعماقي من وقع هذه الأزمة على روحي، حتى لم يحدث لي ولا مرة في حياتي أن أبحث عن ثقب المحرك حتى أضع مفتاح التشغيل فيه، كما حدث لي الآن، ثم انطلقت نحو الطريق وسافرت، قبل أن

تختفي المصابيح المشعة في النوافذ، من خلفي. اجتزت المضيق، وهناك خلف الجسر، أخذت يميني، وخرجت من حافة الشارع لأدخل بين الشجيرات بالقرب من الطريق، أطفأت المصابيح. وهنا قررت أن أنام ليلتي. أخرجت علبة السجائر من جيبي وسحبت سيجارة منها، ولكن لم يكن لدي إلا عود ثقاب واحد. اشتعل كشرارة وانطفأ على الفور. فقذفت بعلبة الكبريت مع السيجارة من نافذة حجرة السيارة. غطيت رأسي بفروتي، وضممت رجلي لبعضهما، وجمعت نفسي على المقعد خلف المقود.

كان القمر عابساً فوق الجبال الباردة القاتمة. بينما استمرت الرياح تعصف بشدة في المضيق، وهي تصفر مهددة بليلة باردة. وهو يهز الزجاج في نوافذ الحجرة، التي كانت تصرك قليلاً كلما اهتزت، تحت وقع رياح شديدة. لم أشعر بحياتي بأنين منعزلاً وحيداً كما شعرت في هذه المرة، بعيداً عن الناس والمحبين والرفاق في العمل. ووصلت إلى قناعة أنه من غير الممكن الاستمرار في الحياة على هذا المنوال. وقطعت على نفسي عهداً، عندما سأعود إلى المحكمة، سوف ادخل إلى كاديتشا وأصارحها، وأطلب السماح منها، وأن تنسى ما كان بيننا. هكذا سيكون أكثر حقيقة وصحة.

ولكن الحياة حلّت المسألة بطريقة أخرى. ولم أنتظر، ولم أفكر أنه سيحدث شيء آخر. فبعد يوم واحد، وفي الصباح رجعت إلى محطة النقل. فلم يكن أحد في البيت، والباب مفتوح. ففكرت في البداية أن آسيل خرجت لقضاء حاجة ما قريباً من البيت لتنقل الماء أو لتأتي بالحطب. نظرت من حولي. فكانت الغرفة غير منظمة كالعادة. وشعرت بقشعريرة قاتلة، وكأنني في كهف موحش لا أثر للجنس

البشري فيه، وأخذني دوران عاصف من البرد القابع تحت سقف هذه الشقة، خطوت إلى سرير صمد. فوجدته خالياً، همست بخوف. «آسيل»! فأجابتني الجدران ببرودة: «لا تسأل عن آسيل»!

هرعت راكضاً نحو الباب، وأنا أصرخ:

- آسيل! آسيل!

لم يجبني أحد. سألت عند الجيران، وسألت في محطة البنزين. فلم يفدني أحد بخبر ما. وكل ما عرفته أنها البارحة غادرت البيت طيلة النهار، وتركت الطفل عند معارفها، وعند المساء عادت. وهنا بدا واضحاً «أنها ذهبت لتعرف هل سيستقبلونها»! وارتجفت من هذا التفكير المخيف.

لم أتذكر أنني قدت السيارة بمثل هذه السرعة في جبال تيان شان، كما قدت السيارة في ذلك اليوم التعيس بالنسبة لي. وكنت أزيد السرعة وأعتقد أنني سألحق بها قريباً بعد ذلك المنعطف، أو في ذلك المضيق، أو في لحظة ما خلال الطريق، وكنت أتجاوز السيارات التي تسير أمامي بسرعة فائقة كالعقاب الذهبي. وعندما كنت ألحق بالسيارة، أسير بموازاتها وأنظر إلى الأشخاص الذين بداخلها، أو في صندوقها، ثم أنطلق إلى الأمام، وأنا أتجاوز السائقين واحداً بعد الآخر. وهكذا كنت خرجت من الحجرة، وأخذت أقذف على الريدتيير كتلاً من الثلج المكدس على حافة الطريق. وحصلت على الماء، بينما كان يخرج بخار عن الريديتير، وأخذت السيارة تتنفس كالفرس الجامحة، لفترة طويلة من العدو. وعندما قررت أن أتابع طريقي، شاهدت سيارة علي بيك مع مقطورته قادماً من الجهة الأخرى. ففرحت. وبغض النظر أننا لم نتكلم مع بعضنا منذ فترة، ولم

نتبادل التحية. فإذا كانت آسيل عندهم، سوف يقول لي. ركضت إلى الطريق وأخذت ألوح له بيدي:

- قف، قف، يا علي بيك! توقف!

أما السائق البديل، الذي كان يجلس خلف المقود، نظر إلى علي بيك ليعرف ماذا سيقول له. أما علي بيك فقد عبس واستدار، وهنا تابعت السيارة مسيرها من جانبي. فبقيت في مكاني ألوح بيدي، وأنا مغطى كلياً بالثلج الناعم المتطاير. ثم مسحت وجهي، وهكذا عاملني معاملة سيئة، ولكن الآن، ليس لدي وقت لمحاسبته. وفهمت، طالما أنه لم يتوقف، هذا يعني أن آسيل لم تذهب إليهم. وهذا سيئ، ولم يبق لدي أي احتمال آخر، عدا، أنها ذهبت إلى أهلها في القرية. ولكن كيف دخلت إلى بيت أهلها، وماذا قالت؟ وكيف تعاملوا معها بعد هذه العودة المعيبة؟ وحيدة مع طفلها الصغير على يديها!

كان من الضروري السفر فوراً إلى القرية.

قمت بإفراغ حمولة سيارتي، وتركت السيارة في الشارع، وركضت إلى الإدارة حتى أسلم أوراق المهمة وهناك، التقيت جانتاي في الممر. وكم كانت كريهة تلك الابتسامة الوقحة الجبانة! أما كاديتشا فقد نظرت إليّ مع شيء من الغرابة. عندما اقتربت من النافذة لغرفة الإدارة ووضعت أوراق المهمة على الطاولة.

لقد نظرت كاديتشا نحوي مع شيء من القلق، وكأنها مخطئة بحقي وبحق أسرتي. فقلت لها:

- استلمي أوراقي بسرعة! فسألتني على عجل:

- هل حصل شيء ما؟

- إنها غير موجودة في البيت. لقد غادرت آسيل!

- هل هذا صحيح؟ - شحب لون وجهها، وهرعت كاديتشا من خلف الطاولة، وعضت على شفتها وهي تقول: سامحني، سامحني يا إلياس! هذا أنا.. أنا...

- ماذا تقصدين بـ أنا؟ تكلمي بوضوح، تحدثي عن كل شيء!

- ودخلتُ على عجل من الباب إليها. وقفت أمامها وهي ترتجف وتبكي وتقول:

- إنني لا أعرف كيف حصل هذا، لكنني أتكلم معك بصراحة يا إلياس. البارحة دق عليَّ الحارس النافذة وقال، أن هناك فتاة تريد رؤيتك. فأنا عرفت أنها كانت آسيل على الفور. دخلت ونظرت إلي بصمت وسألت: «هل هذا صحيح؟» أما أنا، وبلا إرادة، وفي حالة من الارتباك، أجبتها «نعم صحيح. كل شيء صحيح. إنه كان معي!» فابتعدت عن النافذة وغادرت. أما أنا فوقعت على الطاولة، وأخذت أبكي، وأكرر، كالمجنونة: «إنه لي! لي!» وبعد هذا لم أعد أراها... سامحني يا إلياس! وسألتها بحدة:

- توقفي، من أين عرفتْ هي بهذا؟

- إنه جانتاي. إنه هو الذي كان يهددني دائماً بهذا، فهل أنت جاهل بمعرفة هذا الوقح الجبان؟ عليك أن تذهب الآن يا إلياس إليها. وعليك أن تجدها، فلم أعد لإزعاجكما بعد اليوم، فأنا سأغادر من هنا إلى مكان ما.. بعيداً من هنا...

حملتني السيارة على جناح السرعة في الأراضي السهلية المتجمدة، وكانت الرياح قوية تلف كل ما يكون في طريقها، ويبعث من القنوات على حواف الأرض السائبة ما كان فيها من بقايا، ويقذفها بعيداً. وفي الأفق البعيد سادت الظلمة فوق المداخن، والحدائق العارية في القرية.

وصلت آسيل إلى قرية عند المساء. توقفت على حافة الطريق المؤدي إلى بيت أهلها المعروف من قبلي، أشعلت سيجارة على عجل، وأخذت أنفث الدخان بنهم، حتى أطفئ القلق. ثم أطفأت عقب السيجارة وطرقت على البوابة، ولكن، لم تخرج آسيل للقائي. بل خرجت أمها، وهي تضع فروة على كتفيها. وقفت عند المدخل، وقلت بصوت خافت: - السلام عليكم يا حماتي!

- أ - أ، هذا أنت قد ظهرت ثانية؟ - أجابتني الحماة بصوت قاس، فيه شيء من التهديد - لقد أتيت ثانية بعد كل ما فعلته، وتتجرأ أن تخاطبني بكلمة «حماتي»؟ اغرب عن وجهي، حتى لا تراك عيناي! يا لك من متسكع، قذر! لقد خطفت طفلتي البريئة، والآن عدت لتظهر أمامي! يا لك من شخص فاقد للحياء والضمير. وما زلت تنظر بعينين وقحتين نحوي! وقد أسأت إلى حياتنا كلها...

لم تعطني العجوز فرصة أن أقول كلمة واحدة، وتابعت شتمي بأسوأ الكلمات، التي انهالت علي، ومن غضبها الدفين سمع الجيران صوتها فهرعوا، وجاء شباب من البيوت القريبة. بينما تابعت العجوز:

اغرب عن وجهي، ما دمت لم أناد الناس! فلتحل اللعنة الأبدية عليك! حتى لا أراك مطلقاً! وهجمت المرأة الغاضبة نحوي، وقذفت فروتها على الأرض كذئبة تدافع عن أولادها.

لم يبق لي أن أفعل شيئاً. فجلست على عجل خلف المقود. وكان علي أن أغادر، ما دامت آسيل لم تخرج للقائي، ولم ترغب برؤيتي. وأخذت الحجارة والعصي تنهال على سيارتي من كل الجوانب، حيث كان الشبان يطردوني من القرية...

لم أعد أعرف، ما عليّ أن أفعل، فاتجهت إلى بحيرة إيسك

كول. وأخذت أذرع ضفافها ذهاباً وإياباً، بينما كان وجه البحيرة ينسف الثلج الناعم تحت ضوء القمر. آه يا إيسك كول، أنت بحيرة - دافئة إلى الأبد! أما في تلك الليلة، فلقد كانت باردة جداً، جامدة، وغير راغبة برؤية الزوار. جلست على مقعد قارب عتيق بالقرب من الشاطئ، بينما كانت الأمواج تخرج أحياناً عن طورها المعقول، وتبتعد لتكنس الشاطئ بغضب، وكانت تصطدم بالقارب عند رجلي وتبتعد متأوهة..

اقترب مني شخص ما، ووضع يده بحذر على كتفي: كانت هذه هي كاديتشا.

بعد عدة أيام أرسلنا في مهمة إلى مدينة فروقزه، وأقمنا هناك مع مجموعة بحث علمية من أجل استصلاح الأراضي الوعرة، التي كانت بمثابة المراعي. أما أنا فكنت سائقاً، وكاديتشا - عاملة، وهكذا ابتدأنا حياة جديدة.

رافقنا البعثة العلمية إلى أعماق الأراضي البكر الوعرة في أنارخاي، حتى وصلنا إلى منطقة بلحاش. وطالما حصل الفراق مع الماضي فلا بد من إنهاء العلاقة كلياً وإلى الأبد.

في بداية المرحلة، كنت أقضي على الملل والضجر بالعمل. وكان العمل هناك بلا حدود. وخلال ثلاث سنوات ونيف تجولنا في كل المنطقة المراد دراستها في الأراضي الوعرة البكر طولاً وعرضاً. حفرنا الكثير من الآبار الارتوازية، وتم شق الطرق العديدة، وبنينا محطات نقل. وبكلمة واحدة لم تعد هذه المنطقة برية وعرة، كما

كانت سابقاً، حيث كانت تضيع البعثات العلمية فيها مدة طويلة تزيد عن الشهر أحياناً في التلال والأراضي الفسيحة التي لا يوجد فيها إلا نبات الشيح البري وحده أما الآن فقد أصبحت هذه المنطقة. غنية بتربية المواشي. ويوجد العديد من المراكز الثقافية، كما أنشئت عدة مدن وقرى ذات مبان فاخرة، مع كل وسائل الراحة.. وأصبحت هذه المنطقة ذات إنتاجية عالية للقمح، وتربية المواشي حيث تجمع آلاف الأطنان من الأعلاف الخضراء. أما العمل في هذه المنطقة ما زال يعتبر حتى الوقت الحاضر، عملاً صعباً، وخاصة بالنسبة لنا ولأخينا السائق. وهكذا عدت إلى هنا: ليس لأن العمل كان صعباً في مناطق قاسية، فهذا عمل مؤقت، وأنا وكاديتشا لم نخف من الصعاب ومن الممكن القول أننا عشنا فترة لا بأس بها، مع الاحترام المتبادل بيننا. فالاحترام يبقى احتراماً، والحب يبقى حباً، وإذا كان أحد الطرفين يحب والآخر لا، فهذا حسب رأيي عامل مؤثر على أن تكون الحياة حقيقية بكل أبعادها، وربما هذا لأن الإنسان قد خلق هكذا، أو بالنسبة لي كان طبعي هكذا. وكنت أشعر دائماً أن شيئاً ما ينقصني ويصعب تعويض هذا بالعمل، أو الصداقة أو المعاملة الخيرة والاهتمام من جانب امرأة محبة. ولقد ندمت منذ بداية الأمر. أنني سافرت على عجل، ولم أحاول مرة أخرى من أجل إعادة العلاقة مع آسيل لما كانت عليه. أما خلال نصف السنة الأخير أخذت أشتاق إليها يوماً بعد يوم ويزداد الحنين إليها ولطفلي أكثر وأكثر. وفي كثير من الأحيان لم أعد أعرف لذة النوم، وغالباً ما كنت أعيش معهما في الأحلام، وكنت أتصور صمداً وهو يبتسم لي، وهو يقف على رجليه الضعيفتين في بداية مشيه. وأريج الطفولة قد ملأ أنفي ورئتي لآخر

الحياة. كما ازداد حنيني إلى مسقط رأسي في تيان شان، وإلى جبالها، وإلى بحيرتي الزرقاء الرائعة إيسك كول، وإلى السهول المحيطة بالجبال، حيث التقيت حبي الأول والأخير. وبالنسبة لكاديتشا فقد كانت تعلم بكل هذا، ولكنها لم توجه لي أية ملاحظة، أو اعتراض. واقتنع كل منا أنه ليس بإمكاننا أن نعيش سوية طيلة حياتنا.

ابتدأ الربيع في منطقة أنارخاي البكر مبكراً. وذاب الثلج بسرعة، وازدانت المرتفعات باللون الأخضر. ودبت الحياة في السهول، وأخذت تتنفس الدفء والرطوبة. وفي الأمسيات، أصبح النسيم عليلاً، والسماء مزدانة بالنجوم.

كنا ننام في الخيمة، بالقرب من ماكينة الحفر العالية. كنت أمضي الليل يقظاً في بعض الأحيان، وفجأة وصل إلى أسماعنا في هذا الجو الهادئ صوت صفير بعيد، بالكاد يسمع، وكيف وصل هذا الصفير إلى هنا، علماً أن خط السكك الحديدية بعيد عنا. لا أحد يعلم، حيث تبعد المحطة من هنا نصف يوم من السفر في السهول. وهنا أخذت أفكر أنه بدا لي، وليس في واقع الأمر. ولكن قلبي أخذ ينبض بقوة، وبتسارع غير معقول يشدني إلى السفر. وهنا قلت:

- سأسافر أنا، يا كاديتشا.

- نعم يا إلياس، علينا أن نفترق - أجابت هي.

وهكذا، افترقنا، حيث سافرت كاديتشا إلى شمال كازاخستان، وبالضبط إلى منطقة استصلاح الأراضي البكر.

كنت أرغب جداً، ومن كل قلبي أن تكون سعيدة، وأرغب في أن تجد الإنسان الذي يعجبها، والذي يبحث عنها في عالمه. فلم يكن

حظها جيداً مع زوجها الأول، ولم نتمكن أنا وإياها من بناء حياة مشتركة. وكان لي من الممكن أن أبقى معها، لو أنني لم أعرف معنى الحب الحقيقي لآسيل، وكنت محبوباً بالنسبة لها. وهذا أمر يصعب النقاش فيه، وحتى يصعب الغوص في شرحه. فالحب وحيد الجانب لا يستمر إلى الأبد.

أخذت كاديتشا معي إلى محطة القطار، وأجلستها في العربة، وعندما غادر القطار، ركضت إلى جانب الفرغونة كشاب صغير، حتى غاب وجهها عني. وأنا أقول لها: «طريق سعيد لك، يا كاديتشا، لا تذكريني بالسوء!». وهكذا عدت وأنا أكرر في نفسي كلمات الوداع هذه.

كانت أسراب القطا مهاجرة نحو الجنوب، وهي تطير الآن فوق أنارخاي، وأنا مسافر إلى الشمال، أقصد بلادي في جبال تيان - شان...

عندما وصلت، اتجهت على الفور ودون أن أتوقف في أي مكان إلى القرية. أسعفني الحظ في أن أجلس في صندوق سيارة شحن عابرة، وحاولت ألا أفكر بأي شيء - كنت أشعر بالخوف والفرح في الوقت نفسه. اتبع السائق الطريق في السهول المحاذية للجبل. في نفس الطريق الذي التقيت فيه بآسيل... وكان قد تطور خلال هذه الفترة، وتحسن الطريق عن ذي قبل، وتحولت القرية إلى ناحية، وأقيمت الجسور من الإسمنت المسلح، ووضعت إشارات المرور على حافتي الطريق. وتذكرت بحرارة الطريق الترابي القديم، ولم أعرف التحويلة عبر

القناة، حيث غرقت عجلات سيارتي ذات مرة، ولم أجد الصخرة الملساء التي جلست عليها آسيل.

وقبل أن أصل إلى نهاية القرية، طرقت على حديد الحجرة.

- ما في الأمر؟ - سأل السائق، وهو يمد رأسه من النافذة.

- توقف من فضلك، سأنزل.

- ستنزل هنا في الأرض؟ - قريباً سنصل.

- شكراً! لقد أصبحت على مقربة من مكاني، - قفزت إلى الأرض. - سأذهب مشياً على الأقدام، - قلت للسائق، وقدمت له نقوداً.

- ماذا تفعل يا رجل! - قال لي السائق - لا نأخذ نقوداً من مواطنينا.

- خذ يا رجل، فعلى جبهتي غير مكتوب إنني من هذه المنطقة.

- أرى أنك قريب لنا من خلال سلوكك.

- طالما هكذا، شكراً لك، رافقتك السلامة.

غادرت السيارة، أما أنا فبقيت واقفاً على الطريق. لم أتمكن من جمع قواي، وتحديد ماذا سأقول. أشعلت سيجارة بعد أن أدرت ظهري للريح. شعرت أن أصابعي ترتجف عندما وضعت السيجارة بين شفتي، نفثت الدخان عدة مرات، دست على عقب السيجارة ومشيت «وهكذا وصلت»! - همست في نفسي - تعالت دقات قلبي بسرعة، حتى كدت أسمعها بإذني، وكانت تطرق على دماغي كالمطرقة.

لقد تغيرت القرية كثيراً، فتنامت سعة وسكاناً، وظهرت الكثير من البنايات الجديدة والمساكن الإفرادية، وظهرت بعض البيوت ذات الأسقف القرميدية. وامتدت الكابلات الكهربائية والهواتف على حافة الشوارع، وثمة إذاعة راديو ناطقة على مكبرات

فوق العمود عند مبنى إدارة الكولخوز. والأولاد كانوا يركضون إلى المدرسة. أما الطلاب الأكبر سناً، كانوا يسيرون مع معلم شاب، وهم يتحدثون معه عن شيء ما. ربما كان بين أولئك، الذين قذفوا الحجارة والأخشاب على سيارتي... الوقت يسير بسرعة، يسير دون توقف.

أسرعت الخطا. وهذا هو البيت أمامي، وهذه أشجار الصفصاف من حوله. وهذه، المداخن الغضارية. توقفت عند الباب، وحاولت جمع أنفاسي. وخففت من خوفي وقلقي. وسرت نحو البوابة متردداً. طرقت على الباب، فهرعت فتاة مع حقيبة مدرسية في يدها. وهي نفسها التي مدت لي لسانها في المرة الماضية، أما الآن فهي طالبة، وكانت الفتاة الصغيرة تسرع للذهاب إلى المدرسة. نظرت لي، وهي لا تعرف ما في الأمر، وقالت:

- لا يوجد أحد في البيت. فسألتها مؤكداً:

- حقاً إنه لا يوجد أحد؟

- نعم. أمي سافرت لزيارة أقاربنا في تعاونية الغابات، أما أبي فهو في مؤسسة نقل المياه يتابع حركة الجرارات.

- أما آسيل فأين هي؟ - سألت بخجل وارتباك، وشعرت أن لساني قد جمد في فمي الناشف.

- آسيل؟ - استغربت الفتاة، - آسيل سافرت منذ زمن بعيد...

- ولم تعد مطلقاً؟

- تأتي كل سنة مرة واحدة مع زوجها، وهي تقول إنه إنسان جيد جداً!...

لم أعد أسأل عن أي شيء آخر، أما الفتاة فركضت إلى المدرسة، وأنا عدت أدراجي. لقد هزّ هذا الخبر كياني، وأصبح الأمر

بالنسبة لي سيان: من تزوجت، وأين تقطن. ولماذا عليّ أن أعرف كل هذا؟ ولماذا لم يخطر على بالي مطلقاً، أن آسيل قادرة على إيجاد إنسان آخر. وحقاً، إن هذا كان له أن يحدث. وبالطبع، هي غير مجبرة أن تجلس كل هذه السنوات، وتنتظر حتى أعود. سرت في الطريق، ولم أعد أنتظر سيارة عابرة، حتى أعود فيها.

لقد تغير كل شيء على الطريق الذي كنت أسير عليه، حيث تم إصلاحه، وفرش بالحصى الصلبة وتم تعبيده بشكل جيد. أما السهول فقد بقيت كما كانت سابقاً، ذات لون داكن، وقد حرثت بشكل منتظم. ومُسخ لونها، وبرزت منحدرات فسيحة واضحة المعالم انتظمت على جانب ضفاف بحيرة إيسك كول الرائعة. بينما تعرّت الأرض من محاصيلها، ورطبة بعد الثلوج. وفي مكان ما كانت تهدر الجرارات وهي تحرث السهول للزراعة الربيعية.

وصلت في الليل إلى مركز المنطقة. أما في الصباح فقد قررت: أن أذهب إلى محطة السيارات. وهناك بان لي أن كل شيء تغير وانمحى في تلك المنطقة، ولكن من الضروري عليّ أن أتابع الحياة، وأن أعمل. وفيما بعد، من سيعلم ماذا سينجم في المستقبل...

أما طريق تيان - شان، كان كعادته، يعمه الهدير، والضوضاء، وكانت السيارات تضجّ كسلسلة متواصلة، ولكنني كنت أرقب سيارات محطتنا. فهذه واحدة منها، وها أنا أرفع يدي بحركة لا إرادية ملوحاً لها.

لكن، وبسبب السرعة العالية، عبرت السيارة من جانبي ثم توقفت بحدة. أمسكت بحقيبة أغراضي. وخرج السائق من حجرته، عرفت فيه زميلاً قديماً، ورفيقاً في الجبهة يدعى أرميك، ولقد أمضى

دورته التدريبية عندي في الجيش. آنذاك كان شاباً يافعاً، وقف أرميك أمامي، وأخذ يبتسم وكأنه يشك في معرفتي، فسألته: - ألا تعرفني؟

- الرقيب... إلياس؟! إلياس علابايف؟ - أخيراً تذكر هو اسمي كاملاً.

- إنه هو بذاته! - ضحكت، رغم أن الأمر كان بالنسبة لي صعباً جداً! هذا يعني أنني تغيرت كثيراً، طالما أصبح الناس لا يعرفوني إلا بعد تفكير طويل. سافرنا سوية، وتحدثنا عن مواضيع مختلفة، وعن هذا وذاك، وتذكرنا الخدمة العسكرية وكنت أخاف دائماً: حبذا، أن لا يسألني عن حياتي الخاصة. ولكن أرميك لم يكن يعرف أي شيء عن مصيري. فهدأت قليلاً، وسألته بهدوء:

- متى عدت من الجبهة إلى البيت؟

- ليس منذ زمن بعيد، لم يمض على عملي هنا سنتان بعد.

- وأين علي بيك جانتورين؟

- لا أعرف، لم أجده هنا، ويقولون إنه يعمل الآن ميكانيكياً رئيسياً في محطة السيارات في مؤسسة ما في منطقة بامير...

- «رائع، يا علي بيك! أنت رائع، يا صديقي! إنك فارس حقيقي»! - فرحت في نفسي. - هذا يعني، أنه حقق، ما كان يصبو إليه، فهو في الجيش، درس بالمراسلة، في معهد السيارات التكنولوجي المتوسط، وكان يرغب بالحصول على شهادة جامعية من معهد السيارات بالمراسلة أيضاً.

- وهل المدير الآن هو أمانجولوف؟

- كلا، إنسان جديد. أمانجولوف قد ارتقى في منصبه، وهو الآن في الوزارة.

- كيف تفكر، هل سيوافقون على قبولي في العمل من جديد؟

- لماذا، لا، بالطبع سيوافقون، فأنت سائق من الدرجة الأولى، وأنت، حتى خلال الخدمة العسكرية قد كنت في درجة متميزة.

- همست في خلدي وأنا استمع إلى كلماته: - لقد كنت آنذاك، وهل تعرف جانتاي؟

فأجاب محدثي: - كلا، لا يوجد في المحطة شخص بهذا الاسم، ولم أسمع به.

فكرت في قرارة نفسي: - «نعم، لقد حدثت تغيرات كثيرة في محطة السيارات»، وعدت للسؤال:

- وكيف الأمر بالنسبة للمقطورات، هل ما زالت مستمرة على قاطرة ومقطورة في مسار الجبال؟ فأجابني أرميك ببساطة:

- شيء عادي.- هذا حسب الحمل، فإذا لزم الأمر، فإنهم يرسلون - وعليك أن تجد مقطورة. وخاصة أن السيارات الآن أصبحت ذات قدرة عالية.

لم يعرف هو، كم كلفني موضوع هذه المقطورات آنذاك؟

وباختصار، لقد عدت إلى محطة السيارات القريبة من روحي وحياتي... ودعاني أرميك لزيارته في البيت، واستضافني، واقترح أن نشرب كأساً بمناسبة اللقاء، ولكنني رفضت، وخاصة أنني تركت شرب الكحول منذ زمن بعيد.

ولقد استقبلني رفاقي في المحطة بشكل جيد. وكنت شاكراً للرفاق القدامى، الذين يعرفوني جيداً، ولم يوافقوا على تشويه موقفي، والإساءة لي، والآن، كانوا لطيفين معي جداً، ولم يطرحوا عليَّ الأسئلة المحرجة. وهم يرون، أنني عدت بعد عناء طويل في أعمال

قاسية. وعدت لأعمل بشرف وإخلاص، وكانوا يدركون أنه لا ضرورة لفتح أية جروح قديمة، تمسني شخصياً. وأنا حاولت أن أنسى كل شيء إلى الأبد، حتى أنني كنت لا ألتفت إلى المكان الذي عشت فيه مع أسرتي وأنا أمر من جانبه، وحتى لم أتزود بالبنزين من المحطة القريبة من بيتنا السابق. ولكن لم أنجح في هذا، لأنني لا أستطيع أن أخدع نفسي.

عملت فترة لا بأس بها، وفحصت السيارة، بكل أجزائها، وقدرتها على الحمل والسرعة، وبكلمة إنني كنت أعرف عملي جيداً...

ذات يوم، كنت مسافراً بهدوء، ولم أفكر بأي شيء، أمسك المقود جيداً، وأنظر إلى كل ما حولي. كان الربيع جيداً من حولنا، وأخذ الرعاة يجهزون بيوت الرعي الخاصة، وخرج مربيو المواشي إلى المراعي الربيعية، وانطلق الدخان الكثيف فوق تلك البيوت الرعوية. ونقلت الريح صهيل الخيول القلقة، بينما أخذت قطعان المواشي تجوب السهول والهضاب القريبة من الطريق. تذكرت أيام الطفولة المبكرة القاسية... وفجأة، شاهدت أسراب البجع تتجه إلى بحيرة إيسك كول.

هذه المرة الثانية التي أحظى فيها برؤية البجع في فصل الربيع بالقرب من البحيرة، إذ هامت ذهاباً وإياباً وبالطول والعرض وبتشكيلات مختلفة، وأخذت البجعات البيضاء الجميلة تطير فوق البحيرة الزرقاء. يا لها من إيسك كول الرائعة. وأنا لا أعلم، لماذا تحولت عن الطريق! كما في المرة الماضية، عبرت على طريق الأرض البكر، واتجهت إلى البحيرة.

إيسك كول، يا إيسك كول - يا أغنيتي، التي لا أرتوي إلا

بها!... لماذا تذكرتُ ذلك اليوم، عندما قدمتُ إلى هذه الربوة الجميلة، فوق الماء تقريباً، وتوقفت مع آسيل هنا، وكل شيء الآن كما كان سابقاً: أمواج زرقاء مرصعة برغوة بيضاء، وكأنهما صديقتان وفيتان، تركضان يداً بيد على الشاطئ الأصفر. وغابت الشمس خلف الجبال، أما الحياة في التجمعات المائية البعيدة والبحيرات الصغيرة فقد بدت وردية اللون، تحت لمعان الشمس. بدأت البجعات تطير مع أصوات مضطربة حادة. أخذت ترتفع، وهي تبسط أجنحتها، وتنخفض لتداعب المياه، وهي تخفق بأجنحتها الطويلة، وتقذف دوائر واسعة من المياه، ومن فوقها تعلو رغوة بيضاء جميلة. نعم لقد كان كل شيء كالسابق، وشيء وحيد كان ينقصني، هو آسيل، فهي لم تكن معي. أين أنت الآن يا حورتي في منديل أحمر؟

وقفت طويلاً عند الشاطئ. ثم عدت إلى محطة السيارات، وهناك لم أتمالك أعصابي، وخرجت عن طوري... مرة أخرى ذهبت إلى المقهى حتى أطفئ الألم المشتعل في روحي. لم أخرج من هناك إلا في ساعة متأخرة، إذ كانت الظلمة الحالكة تعمّ في كل مكان تحت الغيوم الملبدة السوداء. كانت الرياح تعصف بشدة من جهة المضيق، وكأنها من فوهة أنبوب. وكانت تحني وتهزّ الأشجار بلا هوادة، وكانت الرياح تصفر بشدة على الخطوط المعلقة في الفضاء، وهي تقذف بحبات الحصى الصغيرة الوجوه، بينما كانت البحيرة تئن، وتتأوه تحت وقعها. وصلت بصعوبة إلى السكن التعاوني، وارتميت على فراش، وخلدت للنوم دون أن أخلع ثيابي.

في الصباح، لم أتمكن من أن أرفع رأسي عن الوسادة، كان الصداع القوي بعد تناول الخمر يؤلمني جداً، وخلف النافذة كان المطر

يهطل بغزارة، وفي بعض الأحيان يتساقط الثلج الرطب. تابعت النوم ثلاث ساعات، ولم أرغب بالذهاب إلى العمل. وهذه هي المرة الأولى التي يحصل معي هكذا - وحتى العمل كان شيئاً كريهاً بالنسبة لي. ولكني خجلت، وأجبرت نفسي على الخروج للعمل.

كانت السيارة تسير متكاسلة، وبالأحرى، كنت أنا الكسول، والطقس كان أسوأ ما يكون. ومن فوق حجرات السيارات كان الثلج يتراكم شيئاً فشيئاً، وهذا يعني أن الثلج قد تساقط وسيتساقط بكميات كبيرة فوق الجبال. ليكن ذلك، وهذا لا يخيفني. ولتكن هناك عواصف ثلجية، فهذا لا يهمني، فالمسافة قصيرة، ولم تخفني في يوم من الأيام حتى أخاف منها الآن....

كان مزاجي سيئاً للغاية، انظر إلى المرآة فوق رأسي، بينما كان الغثيان يسيطر على روحي: كان الشعر قد نما فوق ذقني، بينما كان وجهي منتفخاً بعد تناول الكحول، وكأنني نهضت من فراش المرض، وشعرت بالحاجة إلى أن أتناول شيئاً من الطعام في الطريق فمنذ الصباح لم أتناول أي طعام، ولكنني لم أرغب بالأكل، أردت أن أشرب. ومن المعروف أن الإنسان الذي يسمح لنفسه بكسر الخمرة، سوف يتعود على ذلك. توقفت عند مطعم، وبعد أن شربت كأساً، شعرت أن الخلايا في دماغي تنفك عن بعضها، وأخذت أعود لوضعي الطبيعي، وأخذت السيارة تسير مرحة. وبعد ذلك بمرحلة، توقفت عند مطعم آخر، وشربت مئة غرام، ثم أضفت مئة ثانية، وأخذت أشعر أن الطريق يتموج أمامي، وكانت المساحات تذهب أمام عيني يمنة ويسرة. حدقت النظر جيداً، وأنا ألوك عقب السيجارة بأسناني. ولم أر أمامي عدا السيارات القادمة من الجهة الأخرى،

مسرعة، وهي ترشق المياه من البرك إلى زجاج النوافذ، وأنا أيضاً ضغطت على السرعة، ولكن الوقت كان متأخراً. وحلَّ الليل عليَّ بكل ثقله وأنا في الجبال، ومن حولي كان يعم الظلام والسكون الليلي. وهنا عصفت الفودكا في خلايا دماغي. وأخذ التعب والكسل يسيطران على قدرتي، وأمام عيني أخذت تزداد البقع السوداء. وفي الحجرة كان الجو دافئاً نسبياً، فأخذ النعاس مع حالة السكر يرهق كياني. لم أكن ثملاً، ولا مرة في حياتي، كما أنا الآن. وأخذ العرق يتصبب فوق وجهي. وتصورت أنني مسافر على شيء ما غير السيارة، وكأنني أسبح على بساط له مصباحان مشعان إلى الأمام. وهكذا، طرت مع الشعاعين إلى الأسفل بسرعة، نحو المنحدر المنار جيداً، وعدت لأصعد إلى الأعلى وشعاع سيارتي ينطلق إلى الأعلى نحو الصخور العالية على حافة الطريق، وأحياناً كنت أتأرجح يمنة ويسرة خلف الشعاع المنطلق مع كل دقيقة، ولكني لم أتوقف، وكنت أعلم في حال رفعت يدي عن المقود، لن أتمكن من قيادة السيارة ثانية. فأين كنت ساعتها، لم أكن أدرك نهائياً. ولكنني أدرك أنني في منطقة ما من الجبال. آه، يا دولون، يا دولون! آه، يا لك يا سيارة تيان شان! كم أنت ثقيلة! وخاصة في الليل، وعلى وجه الخصوص بالنسبة للسائق الثمل.

ارتفعت السيارة فوق مطب عال، ثم هوت إلى الأسفل قليلاً على حافة الشارع، نحو منحدر الجبل. وعمت ظلمة الليل القاتمة في كل مكان. ولم تعد يداي قادرتين على تنفيذ الأوامر، وأخذَتْ السيارة تزيد السرعة إلى الأسفل، ثم سمعت صدمة قوية للغاية، وانطفأ نور المصابيح، وعمت الظلمة أمام عيني، وثمة شيء وصل إلى بعض

الخلايا العقلية المناوبة ليلاً على عتبة العقل الباطن رغم حالة السكر، وكل ذلك قد أوحى لي أن حادثاً ما قد وقع معي.

لا أعلم كم من الوقت بقيت داخل السيارة، وسمعت فقط صوتاً، وكأنه قادم من بعيد، ويريد أن يخترق القطن طبلة أذني: «وجّه النور إلى هنا!» وثمة أيدي تحسست رأسي، وكتفيَّ وصدري. وقال آخر: «إنه ما زال حياً، ولكنه ثمل». فأجاب الأول: «علينا أن نمهد الطريق أمام السيارة».

- اسمع يا صديقنا، حاول أن تتحرك قليلاً، حتى نزيح السيارة جانباً، - وثمة أيدي دفعتني قليلاً من كتفي بعيداً عن المقود.

تأوهت قليلاً، ورفعت رأسي بصعوبة، وعلى جبهتي كان بعض الزجاج المتكسر. وفي صدري شعرت بألم شديد منعني من الاستقامة بقامتي. أشعل أحد الرجلين عود ثقاب، نظر نحوي. ثم أشعل عوداً آخر، وعاد للنظر من جديد، وكأنه لم يصدق عينيه...

- ماذا حلّ بك أيها الصديق! كيف فعلت هذا؟ - قال الآخر بألم مر في الظلمة الدامسة.

هل تهشمت السيارة بشكل كبير؟ - سألت، وأنا أبصق الدم الذي تجمع في فمي...

- كلا، ليس كثيراً. ولكنها استدارت على جنبها في عرض الطريق.

- انتظروا قليلاً، الآن سأبتعد! - حاولت أن أرفع يديّ، اللتين لم تنصاعا لي مطلقاً، وأن أشغل محرك السيارة، واضعاً المفتاح في ثقب التشغيل للانطلاق.

- انتظر! - أمسك أحد الرجلين بيدي بقوة. - لا تحاول، انزل من خلف المقود. ستنام الليلة عندي، وغداً في الصباح سنرى ماذا سنفعل..

سحبوني من خلف المقود. وقال أحدهما للآخر:

- قم بوضع السيارة على جانب الطريق يا كميل، وبعد ذلك سنتصرف بما يجب!

أخذ أحدهما بيدي ووضعها خلف كتفه، وقام باقتيادي في الظلمة إلى جهة ما. سرنا فترة طويلة، حتى وصلنا إلى بيت ما. ساعدني الرجل على الدخول إلى المنزل. الغرفة الأولى، كانت تنار بمصباح كيروسين. أجلسني الرجل على كرسي، وأخذ يخلع الفروة النصفية عن كتفي. وعندما نظرت إلى وجهه، تذكرت لحظتها، أنه مشرف الطرق، بايتيمير. إنه الرجل نفسه، الذي قمت بسحب سيارته خلف سيارتي، عبر الجبل. شعرت بالخجل، ولكنني شعرت بالاطمئنان، وأردت أن أعتذر، وأن أتوجه بالشكر له. ولكن، وفي هذا الوقت، ارتطمت كمية من قطع الحطب على الأرض، فالتفت لأستطلع الأمر. وعندما نظرت، شعرت بآلام قاسية، وكأن شيئاً ثقيلاً قد هبط على كتفي، فوقفت في مكاني بصعوبة كبيرة. وهناك، عند الباب، وإلى جانب قطع الحطب المرمية على الأرض، كانت تقف آسيل. تسمّرت في مكانها، وكأنها جماد غير متحرك، مستقيمة، وأخذت تنظر إليَّ، وكأنها فاقدة للحياة.

- ما هذا؟ - قالت هي بهدوء.

كدت أن أصرخ: «آسيل»! ولكن نظراتها الغريبة الجامدة لم تسمح لي، أن ألفظ كلمة واحدة. خجلت لدرجة كبيرة، ونكست رأسي للأسفل. حلّ الصمت القاتل في هذه الغرفة. ولم أعلم بماذا كان سينتهي الأمر، لو لم يكن هذا الإنسان هو بايتيمير. أما بالنسبة له فقد أخذ موقفاً وكأن شيئاً لم يحصل، وعاد ليجلسني في مكاني.

- لا بأس، يا آسيل، - قال هو بهدوء - سائق تهشم قليلاً، سيرتاح الليلة عندنا... ومن الأفضل أن تعطيني يوداً، وما يوجد لدينا من مطهرات.

- اليود؟ - قالت آسيل بصوت فيه شيء من الدفء الحذر. - لقد أخذ الجيران اليود... الآن سآتي به! - تحركت بسرعة، وخرجت من الغرفة.

جلست في مكاني، بلا حراك، وعضضت شفتي. وطارت السكرة كلياً من رأسي. وعدت إلى وعيي الكامل في أقل من رمشة عين، ولكن الدم الحامي كان يغلي في صدغي.

- يجب تنظيف الجروح من جديد ثانية - قال بايتيمير، وهو يتفحص الجروح على جبهتي. أخذ الدلو وخرج. ومن الغرفة المجاورة خرج طفل في الخامسة من عمره، حافي القدمين في قميص قصير. نظر نحوي بعينين ملؤهما الفضول. عرفته على الفور. لا أعرف كيف ولكن قلبي قد عرفه بسرعة.

- صمد! - قلت بصوت منخفض ومخنوق للغاية.

توجهت لابني، وأردت عناقه، ولكن وفي هذه اللحظة ظهر بايتيمير عند الباب. وهنا، ولا أعلم لماذا، خفت، وكتمت سري. يبدو أنه سمع، كيف ناديت الطفل باسمه. وأصبح الجو حرجاً، وكأنهم التقطوا في شخصي سارقاً. وحتى أُبعد الخجل عني، سألت فجأة، وأنا أخفي الكدمة التي تشكلت تحت عيني بكفي:

- هذا ابنكم؟ - لا أعلم لماذا سألت هذا السؤال؟ وحتى الوقت الحاضر لا أغفر لنفسي هذا الخطأ.

- ابني! - قال بايتيمير بثقة كلية. ثم وضع الدلو على الأرض،

ورفع الطفل بيديه إلى الأعلى. - بالطبع ابني، ابني الحبيب، أليس كذلك، يا صمد؟ - قال ذلك، وهو يقبّل الطفل، ويدغدغه عند رقبته بشاربيه.

ومن خلال صوته وتصرفاته كان بايتيمير جاداً للغاية، ولم يكن هناك أي مجال للشك.

- وأنت لماذا لا تنام؟ آه منك يا مهري الغالي. تريد أن تعرف كل شيء. هيا أرني كيف تسرع إلى فراشك!

- وأين ماما؟ - سأل صمد.

- الآن ستأتي. هذه هي. اذهب يا بني.

هرعت آسيل بسرعة، وهي تلقي نظرة سريعة وحذرة علينا. أعطت لبايتيمير عبوة اليود، وأخذت طفلها إلى سريره.

أخذ بايتيمير بشكيراً، وبلله بالماء، وأخذ يمسح الدم عن وجهي، ثم قال: - تستحق أن أحرق جلدك كما يجب عقاباً على فعلتك هذه، ولكنك ضيف عندنا... وهكذا قريباً ستتعافى كلياً. حبذا لو تجهزين لنا الشاي يا آسيل.

- نعم، الآن.

فرش لي بايتيمير فوق اللبادة، ووضع لحافاً قطنياً، ووسادة. ثم قال:

- اجلس هنا، واسترح قليلاً.

- لا بأس، شكراً جزيلاً! - قلت مجيباً.

- اجلس، اجلس، لا تخجل، تصرف كما لو كنت في بيتك، - أكد بايتيمير ترحيبه. أما أنا فكنت أتصرف كما لو كنت في حلم. وأخذ قلبي يدق، وكأن إنساناً ما قد خنقه في صدري. وتوتر

كل شيء في عالمي، وفي كياني قلقاً وانتظاراً. آه، لماذا أنجبتني أمي، لأعيش في هذه الدنيا!

خرجت آسيل، واجتهدت أن لا تنظر لنا مطلقاً، وأخذت السماوار لتحضر الشاي في البهو.

- الآن سأساعدك يا آسيل، - قال بايتيمير في إثرها، وهمّ ليخرج خلفها، ولكن صمداً، عاد من جديد. فهو لم يرغب بالنوم مطلقاً.

- ماذا حلّ بك يا صمد؟ - قال بايتيمير، وهو يهز رأسه بطيب خاطر.

- قل لي يا عماه، هل خرجت من السينما لتوك؟ - سأل ابني بجدية وهو يقترب مني، فاستوعبت ما في الأمر، أما بايتيمير فقد أخذ يضحك.

- آه، يا لك يا طفلي الساذج! - أخذ بايتيمير بالضحك، ثم جلس القرفصاء إلى جانب الطفل... لقد أقنعتني... سوف نذهب إلى السينما ونشاهد فلماً، - التفت نحوي مضيفاً. - ولكن هو سيذهب معنا أيضاً...

- نعم، إنني قادم من السينما! - لاطفت الطفل، وتابعت الحديث المرح معه، ولكن صمداً عبس بصمت ومن ثم قال بجدية:

- ليس صحيحاً ما تقولون!

- لماذا تقول، غير صحيح؟

- أين السيف، الذي كنت تحارب به في الفيلم؟

- تركته في البيت...

- هل ستريني إياه؟ - وهل سنذهب غداً لنشاهده؟

- سأريك إياه بشكل أكيد، تعال إلى هنا. ما اسمك؟ صمد، أليس كذلك؟

- حقاً اسمي صمد. وما اسمك أنت يا عم؟

- اسمي... - صمتُ قليلاً وتلعثمت في الكلام، - اسمي - العم إلياس! - لفظت هذا بصعوبة.

- عليك أن تنام، يا صمد، لقد أصبح الوقت متأخراً! - تدخل بايتيمير في الحديث.

- أرجوك، يا بابا، هل من الممكن أن أبقى قليلاً بعد؟ طلب صمد بهدوء.

- لا بأس! - وافق بايتيمير. - الآن سأذهب لآتي بالشاي [1].

اقترب صمد مني. فمسكت يده، ومسحت عليها: إنه كان يشبهني، يشبهني جداً. حتى يداه كانتا كيدي، وكان يبتسم ويضحك على طريقتي.

- وأنت، يا صمد، من ستكون في المستقبل، عندما تكبر؟

- سألت أنا، حتى أتابع الحديث مع ابني.

- سأكون سائقاً. - أجاب هو مباشرة.

- هل تحب أن تتجول في السيارة؟

- كثيراً، كثيراً... ولكن لم يأخذني أحد، عندما أشير بيدي إلى السيارات العابرة...

- غداً سآخذك معي، ونركب في السيارة. أتريد ذلك؟

- أريد جداً، وأنا سأعطيك النقود التي لديّ! - ركض إلى

---

[1] في العادات الروسية، يتم شرب الشاي عادة مع وجبة خفيفة كالكيك أو الزبدة والجبنة والحلويات كطريقة من تقديم الضيافة، أو في إطار الأسرة. - المترجم.

غرفته ليجلب النقود. وخلف النافذة، كانت تنطلق ألسنة اللهب من أنبوب السماوار. بينما كانت آسيل وبايتيمير يتحدثان عن شيء ما.

حمل صمد قطع النقود في كيس من جلد الخروف. وأفرغ أمامي كل ما لديه من ألعاب ذات ألوان مختلفة، بما فيها ألعابه المتنوعة.

أردت أن آخذ قطعة من ألعابه للذكرى، ولكنني لم أتجرأ. فُتح الباب، ودخل بايتيمير وهو يحمل السماوار الذي يغلي ويتصاعد البخار منه بشدة. وخلفه مباشرة دخلت آسيل، وأخذت تجهز الشاي، أما بايتيمير فقد وضع فوق اللباد طاولة مستديرة ذات أرجل قصيرة، وغطاها بشرشف نظيف. أما أنا وصمد فقد جمعنا ألعابه، ووضعناها في الكيس كما يجب.

- هل أريت الضيف كم عندك من الثروة؟ آه، كم أنت مغرور، وتحب التظاهر! - قال بايتيمير بود ومحبة هامساً في أذن صمد.

بعد دقيقة جلسنا جميعنا خلف الطاولة، وأمامنا كان السماوار يبعث الدفء. أما أنا، وآسيل تصنعنا موقفاً، وكأننا لم نر بعضنا في يوم من الأيام. واجتهدنا أن نكون هادئين. ولذلك كنا نلتزم الصمت قدر الإمكان.

- آخ، آه، كم تشوك شعرات شاربيك يا بابا! - أما هو فكان يبتعد بوجنته عن بايتيمير قليلاً، ثم يعود ليضع خده ثانية تحت وقع شاربي بايتيمير.

كم كان الأمر صعباً، أن أجلس بالقرب من ابني، دون أن أجرؤ على مناداته بالابن كما يجب، وهو ينادي إنساناً آخراً ببابا. وكم كان صعباً أن أجلس بالقرب من آسيل، حبيبة عمري، ولا أملك

حقاً أن أنظر إلى عينيها مباشرة. ولكن كيف وصلتْ إلى هنا؟ وهل أحبتْ هذا الرجل وتزوجته؟ ومن أين لي أن أعرف كل هذا، في الوقت الذي بدت وكأنها لا تعرفني مطلقاً، وكأنني إنسان غريب كلياً بالنسبة لها؟ وهل حقاً أنها كرهتني حتى النهاية؟ وماذا بخصوص بايتيمير؟ فهل هو حقاً لم يعرف من أنا في واقع الأمر؟ وهل لم يلحظ أوجه التشابه بيني وبين صمد؟ ولماذا هو لم يتذكر نهائياً ذلك اللقاء بيني وبينه في الجبال، عندما قمت بجر سيارته خلف سيارتي؟ أم نسي حقاً تلك القصة؟

أصبح الوضع بالنسبة لي، أكثر سوءاً، عندما أردنا أن ننام، حيث وضعوا لي فراشاً ووسادة وغطاء هنا فوق اللبادة. اضطجعت على جنبي، وأدرت وجهي إلى الجدار، أما المصباح فقد تم تخفيض نوره، بينما جمعت آسيل الأواني عن الطاولة. - فنادها بايتيمير بهدوء عبر الباب المفتوح للغرفة المجاورة. وعندما اقتربت منه قال لها بهدوء:

- حبذا لو قمت بغسل هذا القميص.

- أخذت قميصي المخطط بمربعات، الذي كان ملطخاً بالدماء كلياً إثر الحادث، وأخذت تغسله، ولكنها توقفت عن الغسيل، إذ سمعت وقع خطا بايتيمير تقترب منها. فسألته كإنسانة مجربة هامسة:

- هل أفرغتم الماء من الريديتير؟ فربما سيتكون الجليد في هزيع الليل. فأجابها بايتيمير وبنفس الطريقة الهامسة التي تكلمت هي بها:

- لقد أفرغ كميل الماء كلياً! - فالسيارة جاهزة كلياً، وغداً في الصباح سنساعده حتى يسافر بالسلامة.

أما أنا فقد نسيت كل شيء: فلم أكن في وضع يسمح لي أن أتذكر الريديتير أو المحرك.

غسلت آسيل القميص، وقامت بتعليقه فوق المدفأة. وتنفست بصعوبة، ثم أطفأت المصباح، وخرجت.

عمّت الظلمة في البيت، وأعلم جيداً، أننا لم ننم جميعنا. فكل منا بقي مع أفكاره وذكرياته، أما بايتيمير فقد نام مع ابني على سرير واحد. وكان يهمس ببعض الكلمات اللطيفة مدللاً الطفل، وكان يغطيه كلما أزاح اللحاف عنه، وهو يتقلب قلقاً في نومه. أما آسيل فقد كانت تتنهد بين الحين والآخر بهدوء. ولقد بدا لي، وتخيلت، أنني أرى عينيها في الظلمة، وهما تلمعان بذبول. ربما كانتا مليئتين بالدموع فبماذا كانت تفكر، وبمن كانت تفكر؟ لقد كنا ثلاثة رجال عندها.. وربما كانت تفكر، وتقلب بين الأفكار المختلطة، كما كنت أفكر أنا، فكل شيء كان رائعاً، ولكنه مأساوي، وهذا هو ما يوحد بيننا. ولكنها أصبحت الآن بعيدة عني، وليس لي أن أمتلك، أو حتى أمس أفكارها، فلقد تغيرت آسيل خلال هذه السنوات، وتغيرت نظرات عينيها اللامعتين النقيتين فقد أصبحتا أكثر قسوة. ولكنها بقيت بالنسبة لي تلك الحورة السهلية في منديل أحمر. وفي كل خلية من خلاياها. وفي كل شعرة من طباعها وأفكارها، وحركاتها، كنت أرى أعز وأقرب إنسان لي في الوجود. وكان كل هذا يتحول إلى الشعور بالإحباط واليأس والمصيبة المعذبة في قلبي وروحي. وفي هذه الحالة السيئة والمحبطة أطبقت أسناني على زاوية الوسادة، وقبعت جامداً بعينين شاخصتين مفتوحتين حتى الصباح.

وخلف النافذة، ومن خلال الغيوم المتتابعة، كان يسبح القمر بهدوء بينها.

وفي الصباح الباكر، نهض كل من بايتيمير وآسيل لتدبير شؤون المنزل كما نهضت أنا. وقررت أن أغادر. خطوت عدة خطوات بحذر، اقتربت من صمد وقبلته عدة قبلات وخرجت على عجل من الغرفة.

أما آسيل، فقد أشعلت النار في الموقد، المصنوع من الحجارة، في المنزل، وأخذت تسخن الماء في قدر كبير، وضع فوق الموقد، أما بايتيمير، فقد كان ينشر الأخشاب. فتوجهت معه إلى السيارة بصمت ونحن ندخن سيجارتينا.

تبين أن السيارة قد اصطدمت البارحة بعدة حواجز على الطريق، حيث تبين أن اثنين منهما قد انكسرا، وخلعا من قواعدهما الإسمنتية. بينما تكسرت المصابيح الأمامية للسيارة، وعطب جانبها، مع الواقي الأمامي، كما عُطِبَتْ عجلة من عجلاتها. قمنا بإصلاح كل هذه الضربات والأضرار بالمطرقة، والعتلة وغيرهما من الأدوات. ثم بدأ العمل المضني والقاسي حيث تجمد المحرك كلياً، ولم يشتغل نهائياً. قمنا بتسخين الكارتر بالأسطبة الحامية، وكان أحدنا يقوم بمحاولة تشغيل المحرك بالمانويل اليدوي. ولقد اتحد كتفانا في العمل حيث تلامسا ونحن نبذل جهداً كبيراً، وانكوت يدانا على قبضة المانويل. وكنا نتنفس نفس الهواء وننفثه، كل في وجه الآخر، وكنا نقوم بعمل واحد. وربما كنا نفكر بشيء واحد أيضاً.

لم يشتغل المحرك وأخذنا نتنفس بصعوبة. وفي هذا الوقت حملت آسيل الماء الساخن في دلوين، ووضعتهما أمامي بصمت وابتعدت

جانباً، فصببت الماء في الريديتير، وعملنا بالمانويل بالتناوب مع بايتيمير مرة ثم مرة، وأخيراً وبعد عناء كبير، اشتغل المحرك. جلست في الحجرة، بينما كان المحرك يعمل بصوت غريب لا يشبه صوته الأصلي، إذ كان يتقطع صوته بين الحين والآخر، ويخر، كأن رئته قد عطبت. صعد بايتيمير ودخل برأسه تحت غطاء المحرك، وأخذ يتفحص الشمعات. وفي هذا الوقت جاء صمد راكضاً. وهو يرتدي معطفاً طويلاً مفتوحاً من الأمام. أخذ يركض حول السيارة، لقد كان يرغب بالركوب في السيارة، والتجول قليلاً كما وعدته. التقطت آسيل ولدها، ولم تتركه وهي تقف بالقرب من الحجرة، وتنظر إليّ معاتبة، مع شيء من الألم والحزن والشفقة على وضعي. لقد كنت لحظتها مستعداً لأن أقوم بأي عمل كان، حتى أكفر عن أخطائي التي ارتكبتها، وأن أعيدهما إليَّ. انحنيت نحوها من الباب المفتوح، وقلت بهدوء مستغلاً صوت المحرك:

- آسيل! احملي ابنك، واجلسي! وسآخذك، كما أخذتك آنذاك، إلى الأبد! اجلسي!

أما آسيل، فقد تابعت صمتها، ولم تقل شيئاً، وابتعدت بهدوء، والدموع تنهمر من عينيها، وهي تهزّ رأسها رافضة طلبه.

- لنذهب، يا ماما! - شدّها صمد من يدها، - لنركب في السيارة ونتجول!

سارت نحو المنزل، وهي تنكس رأسها، أما صمد فكان يحاول أن يفلت يدها منها ويعود إليَّ.

- السيارة جاهزة! - صرخ بايتيمير، وأغلق غطاء المحرك، وأعطاني الأدوات التي استخدمها في الإصلاح.

وهكذا سافرت وأنا أجلس خلف المقود من جديد، وأقطع الطريق، ومن حولي الجبال، وأمامي المنحدرات، بينما كانت تنطلق السيارة كعادتها، لا يهمهما بما أفكر ومما أعاني... وهكذا وجدت آسيل وابني في الجبال. وهكذا التقينا، وافترقنا. وطيلة الطريق حتى الحدود، والعودة من هناك، كنت أفكر، وأفكر، ولكنني لم أجد مخرجاً. وتعبت لعدمية وضحالة تفكيري. حيث لم أجد أفكاراً مفيدة.. علي الآن أن أسافر، وأسافر بعيداً حتى لو طرت في السماء خلف أسراب القطا، والمهم أن لا أبقى هنا مطلقاً.

لقد قررت هذا، وبتصميم كبير، وعدت وأنا أتخبط بأفكاري، وعندما مررت من جانب قسم الطرقات، رأيت صمداً، وكان بعيداً عن المنزل قليلاً، يلعب مع ولد وطفلة أكبر منه قليلاً يبنون من الحجارة الصغيرة بيوتاً، وحظائر للمواشي. وربما ليست هذه هي المرة الأولى التي أرى فيها هؤلاء الأولاد يلعبون هنا بالقرب من الطريق... وهذا يعني أنني كنت، وفي كل يوم، أمر من جانب ابني، دون أن أفكر بهذا مطلقاً. ركنت السيارة جانباً، وتوجهت نحوه:

- إيه، يا صمد! - صرخت له، كنت أرغب أن أنظر إليه.

وهكذا هرع جميع الأولاد، وهم يقولون:

- هل جئت يا عم حتى تُركبنا في السيارة وتأخذنا في جولة؟

- كان صمد يتكلم باسمهم وهو يركض نحوي:

- نعم، سوف أركبكم قليلاً!

صعد الأطفال على عجل إلى حجرتي. تفاخر صمد أمام صديقيه.

- هذا عمنا، أعرفه من قبل.

أخذتهم معي لمسافة قصيرة، ولكني شعرت بسعادة وفرحة كبيرتين. ربما، وحسبما أعتقد أن فرحي وسعادتي كانتا أكبر بكثير من فرحة الأطفال. ثم أعدتهم إلى المكان الذي أخذتهم منه.

- اذهبوا الآن إلى البيت! - ركض الأولاد، فأوقفت ابني:

- توقف يا صمد. - ورفعته إلى الأعلى بكلتا يدي كما كنت أفعل وهو صغير، وأخذت أنظر إلى وجهه طويلاً، وقبّلته، وضممته إلى صدري. وعندما أنزلته إلى الأرض، تذكر صمد وسألني:

- أين السيف، هل جلبته لي، يا عم؟

- آه، لقد نسيت، يا بني، سوف أجلبه لك في المرة القادمة!

- هكذا وعدته بكل ثقة.

- عدني الآن أنك لن تنسى، يا عم؟ سنكون هنا ونلعب في نفس المكان.

- حسناً، اذهب الآن بسرعة إلى البيت!

في محطة السيارات، ذهبت إلى ورشة النجارة، وصنعت ثلاثة سيوف خشبية وأخذتهم معي للأولاد.

كان الأولاد في انتظاري فعلاً، فأخذتهم في رحلة قصيرة. وهكذا بدأت الصداقة مع ابني ورفاقه. لقد تعودوا بسرعة عليّ، فأحببتهم وأحبوني. وعندما يرون سيارتي كانوا يتسابقون، للوصول إليّ، وهم يصرخون فرحين:

- هذه سيارتنا، لقد جاءت!

انبعثت حياتي من جديد، أصبحت إنساناً. أذهب لرحلة جديدة، وأنا مرتاح، وروحي مستقرة نسبياً. وأحمل بين أجنحة روحي شعوراً جميلاً طيلة الطريق. وأعلم أن ابني ينتظرني على الطريق، وأنا أحلم

بدقيقتين، أجلس فيهما معه في حجرة السيارة. والآن. كان كل اهتمامي مركزاً على أن لا أتأخر يوماً عن موعد اللقاء معه. أصبحت الأيام أكثر دفئاً في أيام الربيع، والأولاد يلعبون دائماً في الشارع، ولذلك كنت أجدهم دائماً، بالقرب من الطريق. وبدا لي الأمر، وكأنني أصبحت أعيش في هذه الدنيا من أجل هذا فقط، وكنت سعيداً لدرجة كبيرة. ولكن قلبي كان يتجمد أحياناً من الخوف، ربما يعرف الأهالي في قسم الطرق، أنني أقوم بنقل الأطفال في سيارتي، وعندها سيقومون بمنعهم من الخروج، وخاصة سيمنعون ابني من الخروج للقائي. كنت أخاف ذلك جداً، ورجوت في نفسي آسيل وبايتيمير أن لا يقوما بهذا، وأن لا يصادروا هذه الفرحة من قلبي، ولو لمجرد دقائق من اللقاء مع ابني. وهكذا حصل ذات يوم...

أصبح عيد الأول من أيار قريباً، فقررت أن أقدم هدية لابني بمناسبة العيد. فاشتريت لعبة وهي سيارة شحن صغيرة ووضعتها في صرة مع بعض الأغراض. وفي هذا اليوم، انشغلت في المحطة، وتأخرت في سفري، وأسرعت على الطريق. وربما لهذا، كان لديّ شعور سيئ مسبقاً وقلقت للغاية بدون سبب ما. وعندما وصلت إلى قسم الطرق أخرجت الصرة ورفعتها، ووضعتها إلى جانبي. وأنا أتصور، كم سيفرح صمد، عندما سيستلم الهدية، فقد كان لديه الكثير من الألعاب، ولكن هذه الهدية تعتبر مميزة، - إنها من صديقه السائق إلى الولد الحالم بأن يصبح سائقاً، ولكن صمداً في هذا اليوم لم يكن في الشارع، وجاء الأولاد بدونه. خرجت من الحجرة، وسألتهم:

- أين صمد؟

- إنه في البيت، لقد مرض، - أجاب صديقه.

- مرض؟

- كلا، لم يمرض! - قامت الطفلة بشرح الأمر، بصيغة العارفة. - ولكن أمه لم تسمح له بالخروج إلى هنا!

- لماذا؟

- لا أعلم. فهي تقول لا يجوز هذا.

التزمت الصمت: - هذه هي النهاية لكل شيء.

- خذ هذه، - قدمت الصرة للولد، ولكنني، غيّرت رأيي فوراً.

- لا، لا. ليس من الضروري. - أخذت الصرة من الولد، ومشيت غاضباً نحو السيارة.

- ولماذا، لا يأخذنا العم في رحلة اليوم؟ - سأل الولد أخته.

- إنه مريض، - أجابت الطفلة عابسة.

حقاً كذلك، لقد حزرت الطفلة. إن ما بي هو أسوأ من أي مرض كان، حتى أصبحت لا أعرف من أين أشكو. وكل الطريق أخذت أفكر قلقاً، ما الذي حصل حتى مُنع ابني من الخروج؟ وهل قست آسيل عليّ لهذه الدرجة، التي لم أكن أتصورها من جانبها؟ وهل يا ترى، لم يبق لديها ولا قطرة محبة نحوي، ولا أريد أن أقول محبة، لم يبق لديها ولا قطرة شفقة نحوي، فأنا لم أكن سيئاً معها حتى تحقد عليَّ؟ كلا، لم أصدق ما جرى، يبدو لي... أن هذا التصرف لا يشبه تصرفات آسيل، ففي الأمر شيء آخر. فما هو؟ ومن أين لي أن أعرف... حاولت إقناع نفسي، أن ابني قد مرض قليلاً فعلاً. ولماذا عليَّ أن لا أصدق هذا الولد رفيقه؟ أقنعت نفسي فعلاً، وهنا تحول التفكير بوضع ابني المريض وكيف يعاني من الألم، ويتقلب في الحمى، والهذيان... وربما من الضروري أن أساعد في معالجته، وتأمين

الدواء اللازم، أو يجب إدخاله للمشفى؟ فالناس هنا يعيشون في الجبال، وليس في شارع المدينة الرئيسي! لقد تعذبت كثيراً من شتى الأفكار، وأسرعت للعودة، ولم أتصور، ماذا علي أن أفعل، وكيف لي أن أتصور، ولكن عرفت شيئاً واحداً: عليَّ أن أرى ابني بأسرع ما يمكن.. وكنت على ثقة، أنني سأراه، هكذا قال لي قلبي وأخذت أسرع، ولكن القدر كان وكأنه يعاندني ويثير حنقي، ففجأة انتهى الوقود في السيارة، وكان عليَّ أن أتوقف في محطة البنزين القريبة من محطة النقل...

وهنا صمت رفيق سفري إلياس كلياً، وأخذ يمسح وجهه الذي وشمته الحمى بكف يده، وتنفس بصعوبة، ثم رفع حتى النهاية زجاج النافذة وأخذ يدخن السيجارة، بعد الأخرى.

كان الوقت قد تجاوز منتصف الليل، وكل من كان في القطار غيرنا قد خلد إلى النوم، وكانت عجلات الفرغونة تعزف الموسيقا الخاصة بها، وهي تنقر على وتري السكة الحديدية طيلة السفر بلا توقف، وخلف النافذة، كانت ليلة صيفية صافية من أي ظلام. وكانت بين الحين والآخر تلمع المصابيح المحاذية للطريق، وعند الضرورة كان القطار يدوي بصفارته الحادة، وهو يجتاز المسافات بسرعة.

- وهنا، - تابع إلياس حديثه، - أنتم قدمتم إليَّ، أيها المحترمون، وأنا رفضت طلبكم. والآن أصبح واضحاً لماذا؟ - وضحك جاري ضحكة عالية، وذات معنى، بعد تفكير: - أنتم مكثتم في محطة

البنزين، ثم لحقتم بي على الطريق في سيارتكم «بوبيدا» (النصر)، لقد لاحظت هذا... نعم، كنت مسرعاً، وقلقاً للغاية، وحدسي لم يخنّي، ولم يخدعني يوماً، وهنا صدق الحدس، لقد كان صمد ينتظرني على حافة الطريق، وعندما رأى السيارة، أخذ يصرخ، وهو يركض للقائي مباشرة:

- أيها العم! أيها العم السائق!...

هل أنت سليم يا ولدي! آه، كم أنا سعيد للقائك، ولم يتسع صدري لكل هذه الفرحة.

- ماذا أصابك يا صمد، هل مرضت؟

- لا، إن أمي لم تسمح لي أن أخرج من البيت. وطلبت مني أن لا أذهب معك في السيارة. وبكيت طويلاً. - أخذ صمد يشتكي لي.

- وكيف حضرت الآن؟

- تدخل أبي، وقال لها، طالما هو راغب في هذا، وهذا الرجل يحب أن يفرح الأولاد، فدعيه يذهب، وليأخذهم هذا الرجل في سيارته قليلاً.

- إذن هكذا؟

- وأنا قلت لهم: إنني سأصبح سائقاً...

- نعم، إنك ستصبح سائقاً رائعاً! وهل تعلم ماذا حملت لك هدية؟ - أخرجت الصرة وفيها السيارة، اللعبة. - انظر هذه شاحنة صغيرة تشتغل أوتوماتيكياً، ولم أجد هدية أخرى أفضل منها لك كسائق صغير!

ابتسم صمد، وانفردت تعابير وجهه مرتاحاً.

- إنني سوف أسافر معك دائماً، أيها العم، أليس كذلك؟

- نظر إليَّ بعينين صافيتين، تطلبان مني الموافقة.

- بالطبع، دائماً! - طمأنته بكل ثقة. - وهل ترغب أن تذهب معي في عيد الأول من أيار إلى المدينة، سنزين السيارة بالأعلام، ثم سوف أعيدك لأهلك.

من الصعب الآن أن أشرح، لماذا قلت له هذا، وأي حق أمتلك لهذا. المهم، لماذا صدقت هذا كله على حين غرة. وكان هذا قليلاً، فذهبت إلى أكثر من هذا، فقلت له:

- إذا أعجبك الوضع سوف تبقى معي دائماً! - هكذا اقترحت على ابني بصورة جدية، - سوف نعيش سوية في حجرة السيارة، وأنا سآخذك إلى كل مكان معي، ولن أعطيك لأحد، ولن أفترق عنك نهائياً. هل تريد هذا؟

- أريد! - وافق صمد على الفور، - سوف نعيش في السيارة! لنذهب يا عم، لننطلق الآن!

يحدث في بعض الأحيان أن الإنسان الكبير في السن يصبح كالطفل البريء، جلسنا في حجرة السيارة، وضعت المفتاح في مكان التشغيل للمحرك، فعمل المحرك كما يجب، دست على ضاغط الانطلاق، أما صمد فكان سعيداً إلى أبعد الحدود، ويطلب مني أن أزيد السرعة، يتلاطف معي، ويقفز في المقعد أسرعت السيارة، ففرح صمد أكثر، أخذ يضحك، ويقول لي، ويشير إلى المقود، وخاصة إلى الأزرار في لوحة التشغيل. وأنا كنت أبادله مشاعر الفرح، ولكن، تساءلت مع نفسي ماذا أفعل؟ فارتفعت درجة حرارتي، وارتبكت ارتباكاً كبيراً، حاولت أن أوقف السيارة، ولكن صمداً لم يسمح لي أن أتوقف. وكان يصرخ:

- أسرع، يا عم انطلق بسرعة أكثر! - كان يطلب صمد بإلحاح، - فكيف لي أن أرفض طلبه وأرفض فرحة عيون الأطفال في لحظة سعادة لا تكرر؟ فزدت من السرعة، ولكن، بدت أمامنا سيارة رافعة، تطلق ذراعها إلى الأمام، ثم استدارت الرافعة، واتجهت نحونا. وخلف الكباش كان يقف بايتيمير لتنظيم العمل كما يجب عند التحويلة. ارتبكت وأردت أن أتوقف، ولكن كان الوقت متأخراً: لقد أخذت الولد بعيداً، أخفيت وجهي حيث انحنيت للأسفل، وضغطت على ضاغط السرعة فلم يلحظ بايتيمير شيئاً، كان منهمكاً بالعمل، ولم يرفع رأسه: السيارات التي تمر بجانبه كثيرة ومن غير الممكن أن يدقق في كل واحدة منهن على كثرتها، ولكن صمداً شاهده:

- هذا أبي يا عم، تعال نأخذه معنا، هل توافق؟ - توقف، سأنادي بابا!

التزمت الصمت. فالتوقف أصبح من غير الممكن - فماذا سأقول؟

أخذ صمد ينظر إلى الخلف، ويصرخ، ويقفز فوق المعقد، ويبكي بصوت عال:

- أريد أن أنزل إلى أبي! توقف، أريد أبي! توقف، لا أريد! ماما!...

أوقفت السيارة، بعد أن اختفيت خلف المنعطف، وأخذت أطيب خاطر ابني:

- لا تبكِ، يا صمد، أرجوك، لا تبك! الآن سأوصلك إلى البيت أرجوك لا تبكي!

ولكن الولد الخائف، لم يرغب أن يسمع شيئاً، أو يقتنع بشيء.

- كلا، لا أريد! أريد بابا! افتح الباب! - أخذ يطرق الباب بكلتا يديه، - افتح، سأركض إلى أبي! افتح!

يا لها من مفاجأة معقدة ظهرت أمامي.

- فقط لا تبك - أخذت أرجوه، - الآن سأفتح لك الباب، اهدأ، الآن سأفتح، وأنا سأذهب معك إلى أبيك. - ها أنا فتحت، انزل، ولنذهب سوية!

قفز صمد إلى الأرض، وأخذ يركض نحو أبيه، فأمسكت به:

- توقف! امسح دموعك. ليس من الضروري أن تبكي، أرجوك، يا بني الحبيب، فلا تبك! وسيارتك الجميلة، ألن تأخذها معك؟ انظر!

- أخذت اللعبة - السيارة بأيد ترتجف، وأدرت مفتاح التشغيل - انظر، كيف ستسير إليك، التقطها! - سارت اللعبة السيارة على الطريق، فاصطدمت بحجر فتراجعت وغيرت مسارها وسارت باتجاه آخر.

- لا أريد! - وعاد إلى ما كان عليه قبل قليل، وأخذ صمد يركض بعيداً عني، دون أن ينظر إلى الخلف.

أصابني شيء من الاختناق الساخن في حنجرتي، فركضت حتى ألحق بابني:

- توقف، لا أريد أن تبكي يا صمد! توقف، فأنا أبو... فأنا أبو... أنت تعرف!... ولكن لساني كان عاجزاً عن الصراحة معه.

ركض صمد، دون أن ينظر إلى الخلف، واختفى خلف المنعطف. فركضت حتى الصخرة عند المنعطف وتوقفت، وأنا أنظر إلى طفلي راكضاً بعيداً عني، هارباً مني. شاهدت كيف هرع بايتيمير لاستقباله، تاركاً عمله في إصلاح الطريق، ثم جلس وضمه إلى صدره، وكذلك طوق صمد يديه حول عنق بايتيمير، وكان ينظر

خائفاً باتجاهي.

ثم أخذ بايتيمير صمداً من يده، ووضع عدته فوق كتفه، وسار الاثنان معاً على الطريق، رجل كبير وطفل صغير.

وقفت طويلاً أنظر إليهما، وأنا ألتصق بالصخرة، ثم عدت أدراجي، وتوقفت عند السيارة - اللعبة، كانت ما تزال على وضعها في الحفرة، وعجلاتها للأعلى، انهمرت دموعي سخية على وجهي. وهكذا «انتهى كل شيء!».

حاولت مخاطبة سيارتي الكبيرة، وأنا أمسح على غطاء محركها. فبعث دفء محركها شيئاً في نفسي كان قريباً من روحي، حتى شعرت بشيء من القرابة الدموية مع السيارة التي كانت خير شاهد على لقائي الأخير مع ابني...

⁂

نهض إلياس، وخرج إلى ممر الفرغونة، وقال، وهو يخرج من الباب:

- سأتنفس شيئاً من الهواء الطلق.

أما أنا، فقد بقيت في الغرفة، وبدا الجو قبل الفجر مضيئاً، والسماء صافية، وخلف النافذة تعاقبت أعمدة الهاتف واحداً بعد الآخر على جانب الطريق، وعندها كان من الممكن أن أطفئ الضوء في الغرفة.

اضطجعت فوق السرير العلوي، وأخذت أفكر، هل أُحدّث إلياس، ما كنت أعرفه، وما كان يجهله؟ ولكن لم يعد. ولم أحدثه عن أي شيء آخر.

⁂

لقد تعرفت على مشرف أعمال الطرق بايتيمير في ذلك الوقت، عندما كان يعلم إلياس، أن زوجته وابنه يعيشان في منحدر الجبال. حيث كنا في باماير ننتظر قدوم وفد من عمال الطرق في جمهورية قرغيزستان، وبهذا الخصوص طلبت أسرة تحرير صحيفة تصدر في جمهورية طاجكستان أن أكتب مقالة عن عمال الطرق في جبال قرغيزستان.

من بين أعضاء الوفد، كان بايتيمير كولوف، الذي يعتبر واحداً من خبراء ومهنيي أعمال الطرق الجبلية والسهلية.

وصلت إلى دولون، حتى أتعرف إلى بايتيمير.

التقينا مصادفة، ودون سابق موعد، وكان هذا رائعاً بالنسبة لي، حيث أشار أحد عمال الطرق في طريقنا الجبلي، بعلَم أحمر يحمله، ويلوح به، آمراً مركبتنا بالتوقف. وتبيّن أنه، وقبل قليل قد حدث انهيار جبلي، ويقوم العمال بتنظيف الحجارة والأتربة التي سدت معظم الطريق، خرجت من الباص، وتوجهت إلى مكان الانهيار، وهناك وضعت دعائم قوية، وكان البلدوزر يقوم بنقل التراب من جهة ليضعه في طريق الانهيار، وفي المكان الذي كان يصعب على الآلة الوصول إليها، كان العمال يقومون بأدواتهم اليدوية من معول ورَحْت. وكان هناك شخص في معطف لا يخترقه المطر، وجزمة جلدية عالية الساق، يرافق تحركات سائق البلدوزر ويعطيه توجيهات لازمة للعمل:

- خُذ يسارك! أعد مرة أخرى! اعبر تحت الدعائم! هكذا! قف! ارجع إلى الخلف!... تم إعادة الطريق إلى وضعه السابق، وتم تنظيف الممر. وكان السائقون يزمرون من الجانبين، بعد أن ملّوا من الانتظار، وأخذوا يشتمون، مطالبين بفتح الطريق، أما هذا الرجل في معطفه

الشتوي، لم يعر أي اهتمام لهم، وتابع أعماله، وهو يصدر أوامره لتابعيه. ومن جديد، ومرات عديدة كان يجبر سائق البلدوزر أن يهتم بتركيز الدعائم، وأن ينظف الطريق من أي خطر كان، وهنا، أخذت أفكر «ربما هذا هو بايتيمير، سيد عمله»! تأكدت من هذا كلياً، ولم أخطئ، إنه حقاً كان بايتيمير كولوف. وأخيراً فتح الطريق، وانطلقت السيارات ذهاباً وإياباً.

- وأنتم، لماذا بقيتم هنا، وراحلتكم قد غادرت؟ - قال لي بايتيمير.

- أنا أريد أن أتحدث معكم!

لم يظهر بايتيمير أي استغراب. وتقدم مني ببساطة وشدّ على يدي برزانه واحترام:

- سأكون سعيداً في استقبال الضيف.

- لدي مهمة تتعلق بعملكم يا محترم، - توجهت إلى بايتيمير ملاطفاً - فأنتم تعلمون، أن عمال الطرق لدينا سوف يسافرون إلى طاجكستان؟

- سمعت عن هذه المهمة. - قال بايتيمير بوقار.

- إذن، علينا قبل سفركم إلى بامير أن نتحدث قليلاً.

وكلما كنت أشرح، وأزيد في الإيضاح بخصوص مهمتي، كان بايتيمير يزيد من إقفال حاجبيه، وهو يستمع باهتمام، ويفكر في كل كلمة، وهو يمسح شاربيه الخشنين.

- إنني أقول لكم، أهلاً وسهلاً، كضيف عندنا، - قال هو بهدوء، - أما إلى بامير فلن أسافر، والكتابة عني ليست بمسألة هامة، ولا أريد أن أكلفك بهذا.

- لماذا؟ هل لديك أعمال؟ أو في البيت الوضع غير مناسب؟

- أية أعمال لدينا، - لا توجد أعمال عدا الطريق، وأنتم ترون بأنفسكم، أما أعمال البيت؟ - صمت قليلاً، وأخرج سيجارة. - في البيت.. بالطبع توجد أعمال، كغيري من البشر، الأسرة.. وعلى أية حال لن أسافر إلى بامير.

حاولت إقناعه، وأن أشرح له أن لوجوده كاختصاصي في شؤون الطرق أهمية أن يكون في عداد الوفد. لقد استمع بايتيمير لي بانتباه من باب الاحترام والرزانة من جانبه، ولم أتمكن من إقناعه.

لقد كنت حانقاً لدرجة كبيرة، وقبل كل شيء، كنت غاضباً من نفسي. لقد خانتني قدرتي الصحفية المهنية. والدقة في التعامل. فأنا لم أتعامل مع بايتيمير كما يجب، ولم أتقدم منه بالطريقة اللازمة. والآن كان علي أن أعود خالي اليدين، ولم أنفذ مهمة أسرة التحرير.

- لم يبق لي إلا أن أسافر، أيها الإنسان المحترم. عسى أن أجد سيارة تنقلني في طريقها... نظر بايتيمير إلي باهتمام ودقة بعينين ذكيتين هادئتين، ثم ابتسم حتى اهتز شارباه:

- أهل المدينة في قرغيزستان أخذوا ينسون العادات. فعندي يوجد بيت، وأسرة وأصول للضيافة، فطالما أنكم قدمتم إليّ، فغداً ستسافرون من بيتي، حسب العادة، وليس من الطريق. لنذهب، سوف آخذك الآن إلى البيت حيث زوجتي وابني، ولا تغضب مني، فعليَّ أن أقوم بجولة، وعلينا أن نضع إشارة ضوئية لازمة في مكان خطر سأعود قريباً. هذه هي طبيعة عملنا.. لا تتحمل التأجيل.

- انتظر، أيها الإنسان المحترم. - طلبت منه. - سأذهب معك، ونقوم بالجولة معاً.

نظر بايتيمير إليَّ بعينين واسعتين وبذكاء، وهو ينظر إلى بذلتي المدنية التي أرتديها.

- أعتقد أنه من غير المريح لكم أن تتجولوا معي، فالمسافات طويلة، والطرق صعبة وملتوية.

- لا بأس، ولا ضير في هذا.

وهكذا سرنا سوية، كنا نتوقف إلى جانب كل جسر. والتواء، وانكسار، وعند الصخور المعلقة على حواف الطريق. بالطبع خلال هذه الجولة تحدثنا في الكثير من الأمور. وحتى هذا، كان الأمر بالنسبة لي بمثابة المجهول، كيف أسأله، ومن أية كلمة ابتدأ، وكيف حصلت على ثقة بايتيمير وتعاطفه معي، فلقد تحدث لي عن تاريخ حياته، وتاريخ أسرته.

حديث مشرف الطريق

تسألون لماذا لا أريد أن أذهب إلى باميير. فأنا شخصياً قرغيزي من باميير، ولكني درست هنا، في تيان شان، لقد كنت شاباً صغيراً عندما بدأت العمل في أعمال شق الطريق العام في باميير. ولقد ذهبت إلى هناك بناء على نداء منظمة الكومسومول، وعملنا بكل ما لدينا من اندفاع وحماس، وبرغبة كبيرة، وخاصة الشباب. وبفضل هذا النشاط تم إنجاز هذا العمل الجبار، ووصل الطريق إلى باميير، التي كانت مستحيلة لكل من سبقنا! وكنت من المتفوقين في العمل، وحصلت على الكثير من الجوائز، والأوسمة، وكان هذا للمجد والشهرة. وهناك في العمل، التقيت فتاة، أحببتها حباً كبيراً، لقد كانت جميلة وذكية، وكانت قد قدمت من قرية إلى مشروع البناء؛ وفي تلك الأيام لم يكن الأمر بالنسبة لفتاة من قرغيزستان مهمة سهلة حتى الآن. فليس من السهل أن تتجاوز الفتاة في قرغيزستان الصعاب على طريق حياتها، وأنت نفسك تعرف هذا - فالعادات والتقاليد القديمة ما زالت تلعب دوراً في الحياة العامة وبعد مضي سنة كاملة، أوشك العمل في شق طريق عام باميير على نهايته، وكانت الحاجة ماسة للكوادر لاستثمار الطريق. إن شق الطريق نصف المهمة، وهذا من الممكن تحقيقه بالجهود المشتركة، أما، ماذا بعد ذلك، فمن الضروري متابعة المراقبة والعناية لاستثمار حسن للطريق العام. لقد

كان لدينا شاب مهندس - حسينوف، وهو ما زال، وحتى الوقت الحاضر يعمل في قطاع الطرق، ويعتبر من الكوادر المهمة. وتصادقت معه صداقة متينة، ولقد أقنعني حسينوف أن أسافر للدراسة. أخذت أفكر أن فتاتي غولبارا لن تنتظرني، وستعود إلى القرية، ولكنها، انتظرت بكل وفاء، وتزوجنا، وبقينا هناك في قطاع الطرق، حيث عشنا حياة جيدة ومتعاونة. وعليَّ أن أقول بكل صراحة أن مسألة بناء أسرة متينة، بالنسبة لعمال الطرق، الذين يعيشون في الجبال، مسألة ليست سهلة، وللزوجة دور مهم في هذا. فيما بعد، أدركت هذا جيداً، إذ عانيت منه بصورة مباشرة وفي الوقت الذي أحببت فيه عملي على طول حياتي، كان الفضل في هذا يعود لزوجتي. فولدت لدينا طفلة، وبعد فترة أخرى، وهنا اشتعلت الحرب.

أصبح طريق عام باميركالنهر خلال فيضانه القوي، قذف بالشعب إلى الأسفل - إلى الجبهة القتالية وحدها.

لقد جاء دوري، وفي الصباح خرجنا جميعنا إلى الشارع. كنت أحمل الطفلة الصغيرة على يدي أما الأكبر سناً فقد سارت إلى جانبي، وهي تتمسك بثيابي. أما غولبارا الحبيبة على قلبي، يا لها من مسكينة! حاولت أن تتمالك أعصابها، وأن تبقى هادئة، وهي تحمل كيس أغراضي، وكنت أعرف، كم ستتعرض لصعوبات في جبال خالية من البشر، في قسم مراقبة الطرق مع طفلتين صغيرتين. وكنت أرغب في نقلهم إلى القرية، إلى أقاربنا، ولكن غولبارا لم ترغب بهذا، وكانت تقول، أنها ستبقى هنا في انتظار عودتي، وأنه ليس من الممكن أن نترك الطريق بدون متابعة ومراقبة... وآخر مرة كنا فيها أنا وزوجتي وطفلتانا، كانت تلك عندما وقفنا عند حافة الطريق،

نظرتُ إلى زوجتي، وإلى طفلتينا، وودعتهن مسافراً لا أعرف إلى أين. لقد كنا شباباً صغاراً، يافعين آنذاك أنا وغولبارا، وفي تلك الآونة بدأنا نعيش حياتنا وهنا قطعت الحرب كل شيء.

كان من نصيبي أن أكون في كتيبة الهندسة. وهناك كان من شأننا أن نشق الكثير من الطرقات على رقعة الحرب الواسعة، ومد الجسور، لم نعد فأنجزنا جسراً وسرنا عبر نهر الدون، وفيسلا، ودوناين وحدث أن غصنا في المياه الجامدة، وأن نحترق في الدخان واللهب، والقذائف تنفجر حولنا في كل مكان، حاملة الموت للبشر، ولم يعد لدينا أية قوة، وكنا نطلب الموت أحياناً، ولكن عندما نتذكر الأحباء الذين ينتظرون عودتنا في الجبال، لم نعلم من أين كانت تنبعث وتتدفق القوى فينا، ونصبح أقوى من ذي قبل، وكم من مرة قلت لنفسي؛ كلا، ليس من أجل هذا أتيت من باماير، حتى أموت هنا، تحت جسر، وكنت أحياناً أشد الأسلاك بأسناني لتنفيذ مهمة ما، ولم أستسلم للصعوبات... ولم أستشهد، ووصلت حتى برلين تقريباً.

كانت زوجتي تكتب لي الرسائل باستمرار، وكان شيئاً جيداً، أن البريد كان يمر من جانبنا على الطريق العام. كانت تكتب عن كل شيء بالتفصيل، وعن الطريق أيضاً، ولقد تابعت عملي كمشرف على الطريق مكاني، وكنت أعرف أن هذا صعب للغاية، والطريق، ليس في منطقة سهل، بل في باماير.

وفقط في ربيع العام الخامس والأربعين، لم أعد أستلم الرسائل ولم تعد تصلني أية أخبار عن زوجتي وطفلتيّ. وكنت أطمئن نفسي أن الجبهة، ليست لعبة أطفال فكل شيء ممكن أن يحصل. وذات يوم،

جاء طلب حضوري إلى مكتب إدارة الفوج. فتحدثوا معي شاكرين جهودي، وقال قائد الفوج: «لقد بذلت أيها المساعد جهوداً كبيرة في محاربة الأعداء، فشكراً لك، وهذه الأوسمة لك، إذ أنك تستحقها. عد إلى البيت، فوجودك هناك ضروري أكثر من هنا». أنا بالطبع سررت جداً لهذا الخبر. وأرسلت برقية، حتى أفرح أحبائي، ولكنني لم أفكر مطلقاً، لماذا سرحوني من الجيش، وأرسلوني إلى البيت، قبل انتهاء الحرب...

وصلت إلى موطني، ولكن لم أذهب إلى القيادة العسكرية في المنطقة فوراً، وقلت في نفسي سأذهب لاحقاً، ليس في الأمر ضرورة مستعجلة. فإلى البيت أولاً، إلى البيت وحده، وبالسرعة القصوى! وجدت سيارة عابرة إلى تلك المنطقة، وبعدها انتقلت إلى سيارة أخرى لأصعد للأعلى عبر طريق عام بامير.

حبذا لو كانت لدي أجنحة، لطرت فوق الجبال. ولأنني تعودت التنقل في سيارات الجبهة، أخذت أصرخ للسائق، وهو في حجرته:

- أسرع أيها الأخ السائق، ولا تدلل سيارتك! فأنا ذاهب إلى البيت، وأريد أن أصل بسرعة!

وها أنا على مقربة، وخلف ذلك المنعطف سيكون بيتي، ولم أصبر حتى تتوقف السيارة فقفزت على عجل إلى الأرض، وعلى كتفي كيس الأغراض، وأخذت أركض، أركض أركض. مررت من عند المنعطف و.. لا أعلم أي شيء. وكان كل شيء في مكانه: فالجبال في مكانها، والطريق نفسه، ولكن لا يوجد بيت، ولا يوجد أي كائن بشري من حولي. وهناك كومة من حجارة. دُهشت وذهلت كلياً، ثمة كتلة ثلجية ضخمة انزلقت من أعلى الجبل إلى الأسفل، فحملت معها

كل شيء في طريقها، ولم تبق شيئاً، وخاصة أن الجبل من هذه الناحية كان شديد الانحدار، وكأن يداً وحشية، ذات مخالب أسطورية قد مدت إلى الجبل وجرفت الأرض عن المنحدر الشديد، وحفرت مسيلاً ضخماً. ولقد كتبت زوجتي في آخر رسالة أن كمية الثلوج المتساقطة كانت كبيرة جداً، ثم هطلت أمطار غزيرة. وكان من الممكن، توقع النتائج. ومن الضروري أن تفجر كتل الثلج، وإنزالها قبل أن تحل المصيبة البيئية: وهل كان بإمكان زوجتي أن تقوم بهذا العمل غير الأنثوي...

هكذا حصل، كيف التقيت مع أسرتي بعد طول معاناة! رأيت الموت بعيني ألف مرة، وعدت حياً من جهنم الحرب، ولم أجد أحداً من أسرتي، كأنهم لم يكونوا.. وقفت مكاني جامداً، غير قادر على الحراك، أريد أن أصرخ بصوت لم يسمعه أحد من قبل، حتى تهتز الجبال من حولي، - فلم أقدر. لقد تحجر في كياني كل شيء وكأنني قد فقدت الحياة كلياً، أحسست فقط، كيف انزلق كيس الأغراض عن كتفي وسقط عند رجلي. وهكذا تركته هناك، حيث كنت قد اشتريت هدايا لابنتيّ وزوجتي، مع بعض الأغراض التي وجدتها في طريقي... وقفت طويلاً، وكأنني كنت أنتظر حدوث شيء عجيب، وغير معقول من عالم المعجزات. ثم استدرت، وعدت أدراجي. توقفت، ونظرت خلفي: تأرجحت الجبال من جهة لأخرى، وأخذت تنهار عليّ بسرعة. صرخت، وانطلقت هارباً، بعيداً عنها! عن هذا المكان الملعون إلى الأبد! وعند ذلك أخذت أبكي...

لا أذكر، كيف وإلى أين توجهت، ولكن أعرف أنني في اليوم الثالث وجدت نفسي في المحطة، أتسكع بين البشر كإنسان ضائع.

نـاداني بـاسمي شـخص برتبـة ضـابط، دققـت في ملامحـه، فـإذا بـه حسينوف عائداً إلى أهله، لقد تسرّح من الجيش. سألني عن وضعي، فحدثته عن مصيبتي، فسألني بعد أن تألم لوضعي:

- وإلى أين تتجه الآن؟

- أنا نفسي لا أعرف إلى أين اتجه!

- لا، - قال حسينوف بلغة الجبهة، - لا يجوز هكذا، أصبر، وتحمل. ولا أسمح لك أن تهوم متسكعاً وحدك، فلنسافر سوية إلى تيان شان، وهناك سنقوم بشق طريق، وهناك سنرى كيف ستكون الأمور...

وهكذا، وصلت إلى هنا. في السنوات الأولى قمنا ببناء الجسور على الطريق. مضى الزمن، وكان من الضروري أن أتخذ قراراً للعيش في مكان ما، بصورة دائمة. أما حسينوف فقد أخذ يعمل في الوزارة، وكان دائماً إلى جانبي، ولا ينساني مطلقاً، وغالباً ما كان يأتي إليّ. ونصحني أن أعود إلى العمل السابق كمشرف فني على الطرق في المنطقة. لم أتخذ قراراً. لقد كان هذا شيئاً مرعباً وفي أعمال البناء، لست وحيداً، بل مع الناس، وهذا يسهل الأمر. وعند ذلك، ربما سأموت من ألم المصيبة والحزن القاتل. بقيت فترة طويلة أعاني من الاغتراب عن نفسي، فلم أقدر على نسيان الماضي. وكأن حياتي قد انتهت عند تلك اللحظة، ولم يعد أمامي شيء يستحق الحياة، ولم أفكر مطلقاً بأن أتزوج ثانية، فإنني كنت أحب رفيقة شبابي غولبارا وأولادي، وبدا الأمر لي، وكأنه ليس لأحد، كان من كان، أن يكون بديلاً لهن. أما أن أتزوج هكذا، حتى أعيش، فهذا أمر لا أرضى به، فمن الأفضل أن أبقى وحيداً.

وبعد تفكير طويل، قررت أن أذهب للعمل في قسم الطرق كمشرف فني: سأجرب، فإذا لم أتمكن من المتابعة، سأعتذر، وأذهب إلى جهة أخرى، فحددت مهمتي في هذه المنطقة، في الجبال. وتدريجياً تعودت على الحياة هنا، وتحسن وضعي مع الزمن، إذ هدأ الألم في جرحي العميق، فقدان أسرتي، وخاصة أن الأعمال كثيرة في القسم، ولا تعطي الإنسان فرصة للملل والكآبة. رغم أن الأحلام والكوابيس كانت تقض مضجعي في الكثير من الليالي: أقف متجمداً أمام ذلك المكان، حيث كان بيتنا، وأشعر كيف يسقط كيس الأغراض عن كتفي... وفي مثل هذه الأيام، كنت أذهب منذ الصباح إلى العمل على الطريق، ولا أعود، إلا في المساء المتأخر، وهكذا بقيت وحيداً. وحقاً، إنه كان يخطر على بالي أحاسيس داخلية حزينة: «هل من الممكن أن أكون سعيداً في يوم ما؟».

وقد جاءت «السعادة»، أصعب، وأكثر عذاباً، عندما كنت أنتظر هذا أقل من أي شيء آخر.

كنت ذات يوم، وقبل أربع سنوات أزور جاري، حيث مرضت أمه، فالأمر بالنسبة له صعب، أن يترك البيت: عمل، أسرة، أولاد، أما الأم العجوز فقد كان يسوء وضعها يوماً بعد يوم. فقررت أن أساعدهم، وأنقلها إلى عيادة الدكتور كي أجري لها فحوص طبية. ومصادفة حضرت السيارة إلى القسم من الإدارة، إذ جاءت ببعض المواد، فأفرغتها، وعند ذلك طلبت منهم نقل العجوز إلى الطبيب. وهذا ما حصل، إذ سافرت معها إلى المدينة. فأراد الأطباء إدخالها المشفى، لكنها رفضت هذا كلياً، وقالت، إذا كان لي أن أموت، فسأموت هناك في البيت، أرجوك أن تنقلني، وإلا سأدعو عليك

باللعنة، وهكذا عدت بها إلى المنزل. كان الوقت متأخراً، ومررنا من جانب محطة النقل، وفجأة توقف السائق وسمعته يسأل:

- إلى أين أنتم ذاهبون؟

أجابه صوت امرأة، إذ قالت له شيئاً ما، فسمعت وقع خطوات.

- اصعدوا! - قال السائق - ماذا حلّ بكم؟

صفّ السائق السيارة على جانب الطريق. اقتربت من السيارة امرأة شابة مع طفل على يديها، وهي تحمل بإصبعها صرّة صغيرة. ساعدتها على الصعود إلى القاطرة، وقدمت لها مكاني خلف الحجرة، حتى لا يؤذيها الهواء البارد، أما أنا فلزمت الزاوية.

انطلقت السيارة، وكلما صعدنا في طريق الجبال، كان البرد يزداد، والرياح تشتد برطوبة عالية، أخذ الطفل يبكي، فأخذت تهزه فوق يديها، وتعتني به، لكن الطفل لم يسكت، ولم يفكر بالصمت نهائياً. يا لها من مشكلة! ففكرت أن أنزلها إلى الحجرة، فهناك العجوز بالكاد تتنفس. عندها، لامست كتف المرأة بإصبعي، وقلت لها:

- أعطيني الطفل، ربما سيهدأ معي، أما أنت فاجمعي نفسك إلى الأسفل حتى لا تؤذيكِ الريح. أخفيت الطفل تحت فروتي القصيرة، وضممته إلى صدري، فهدأ، وأخذ يتنفس بهدوء، يا له من طفل بريء! له من العمر عشرة أشهر تقريباً، حافظت عليه عند جنبي اليساري. وفجأة انتفض قلبي، وأنا لا أعرف لماذا، أخذ يدق بسرعة، كطير قد ذبح لتوه. شعرت بأحاسيس مزدوجة، فرحة، وحزينة وأخذت أفكر: «إيه، هل سأبقى وحيداً، ولن أكون أباً في يوم من الأيام؟»، أما الطفل فقط غط في نوم عميق، ولا يهمه أي أمر آخر.

- إنه صبي، أليس كذلك؟ - سألتُ أمه.

أجابت بهزة من رأسها موافقة. وأرى أنها قد أخذت تتجمد المسكينة، فمعطفها كان خفيفاً، ولا يقيها من البرد. أما أنا فكنت حتى في الشتاء أرتدي فوق الفروة معطفاً ضد المطر حملت الطفل بيد، وخلعت المعطف الشتوي عن يد، وقدمت لها الكم المخلوع، وقلت لها:

- اخلعي المعطف عني، وضعيه على نفسك، إذا بقيت هكذا ستمرضين.

- لا، لا، لا تقلقون بشأني، - أجابت على اقتراحي بالرفض.

- اخلعي، اخلعي! - غطي نفسك، واتق شر الريح. - طلبت منها بإصرار.

أخذت الرداء، ولفت نفسها به، بينما دفعت بخشبة الأرضية إلى تحت قدميها، ثم سألتها بعد وقت:

- هل شعرت بالدفء؟

- نعم، شكراً لكم.

- ولماذا تسافرين مع الطفل في هذا الوقت المتأخر؟

- هكذا، تطلب الأمر، - أجابت هي بهدوء.

في هذا الوقت كنا قد وصلنا إلى المضيق. وهنا كانت قرية رودنيك (الينبوع -م). كان السكان نائمين، والمصابيح قد أُطفأت، والنوافذ بدت مظلمة. بينما أخذت الكلاب تنبح بشدة مطاردة السيارة. وهنا تساءلت مع نفسي، إلى أين هي مسافرة؟ وأخذت أفكر أنها ستنزل في قرية رودنيك، وبعدها، لا توجد قرى أخرى: أمامنا المعبر الجبلي، وبعدها يقع قسمنا.

- أنتم ربما وصلتم، أليس كذلك؟ - قلت لها متسائلاً، ثم

طرقت على حجرة السائق، - بقي مسافة قصيرة حتى المعبر، وبعد ذلك تنتهي رحلة السيارة.

- آ، هنا إذن؟ - سألت هي.

- هذه قرية رودنيك، فأنت تقصدينها بالذات؟

- نعم، أنا... إلى هنا ، - قالت هي مع شيء من الارتباك، ثم وقفت بسرعة، أعطتني الرداء، وأخذت الطفل بعناية، وهنا أخذ يبكي شيئاً، فشيئاً. وبدا الأمر هنا، أن في أمرها شيء سيئ، ربما ابتلت بسوء، وهل من الممكن إبقاؤها وحيدة في الليل، وفي هذا الجو البارد؟

- ليس لديك مكان تذهبين إليه! - قلت لها بلا مواربة، - فلا تفكري بسوء. أعطيني الطفل! - أخذت الطفل منها بالقوة تقريباً، وأنا أقول لها، - أرجوك أن لا ترفضي. سوف تنامين عندنا في القسم، وغداً، يكون النهار، ولك كامل الحرية بالتوجه إلى حيثما تشائين.

اتفقنا! لنتابع! - قلت أنا للسائق.

انطلقت السيارة، بينما جلست هي مكتئبة، صامتة، وهي تغطي وجهها براحتي يديها. لا أعلم، ربما، أجهشت بالبكاء. فهدأت من روعها قائلاً:

- لا تخافي! فأنا لا أسيء لك مطلقاً، ولن أتصرف معك تصرفاً سيئاً... فأنا مشرف الطريق المهني بايتيمير كولوف. بإمكانك أن تكوني مطمئنة. رتبت شؤونها مع الطفل في بيتي. وكانت لدينا غرفة صغيرة، كمحلق للبيت في ساحة المنزل. فنمت أنا هناك فوق سرير الخشب. أخذني التفكير طويلاً، ولم أقدر على النوم. كنت قلقاً للغاية، ومن غير المريح أن أكثر من الأسئلة، وأنا لا أحب هذا، وعلى

أية حال، كان علي أن أسأل شيئاً ما، ربما تحتاج هذه الإنسانة لمساعدة ما، وكانت تجيب بارتباك وحرج، وبلا رغبة. ولكنني قد عرفت وحزرت ما لم تقله هي إلى الأخير. وعندما يكون الإنسان في مصيبة، يقول كلمة، ويخفي عشرة. فهي خرجت من البيت بخلاف مع زوجها، فهي إنسانة تحترم نفسها كما ألاحظ، ومبدئية في مواقفها، ويبدو أنها تعاني من المصيبة، ولكنها لا تستسلم. وكل إنسان حر في أن يتصرف كما يشاء. وهي تعرف مصلحتها. وكنت آسف لوضعها، فهي ما زالت شابة، لا تقل أنها امرأة بل فتاة في ربيع شبابها، رشيقة، ومؤدبة، وحنونة على طفلها، فكيف تصرف هذا الإنسان زوجها، حتى أجبرها على مغادرة البيت، تاركة كل شيء؟ وعلى أية حال، هذا شأنها. سوف أجد لها سيارة غداً توصلها إلى المكان الذي تريده - وإلى اللقاء. لقد تعبت في ذلك اليوم. وأخذني النوم، وأخذ يخيل لي، وكأنني مسافر بالسيارة، وكأن تحت فروتي القصيرة طفل صغير ينعم بالدفء، ويضم نفسه إلى قلبي.

نهضت عند الفجر، وذهبت للقيام بجولة على الطرق، ولكني عدت بسرعة لأرى كيف كان وضع ضيوفي في البيت. وضعت الحطب في الموقد بهدوء، حتى لا يستيقظ الطفل، وأشعلت النار فيه، ثم وضعت السماوار. وتبيّن أنها نهضت، وجهزت نفسها للسفر، وأخذت تشكرني على الضيافة، ولكني لم أتركها تغادر بدون فطور، وطلبت منها أن تنتظر قليلاً، أما بالنسبة لرفيقي في سفر البارحة - الطفل، تبين أنه طفل رائع، ذو حركات مثيرة، أخذت ألعب معه، وكان هذا بالنسبة لي سعادة حقيقية، وعندما جلسنا نشرب الشاي مع الفطور، سألتها:

- إلى أين تنوون المغادرة؟

فكرت قليلاً، ثم قالت:

- إلى ريباتشي.

- وهل لك أقارب هناك؟

- كلا، أهلي في قرية أخرى خلف توسور.

- لهذا عليكم أن تركبوا في واسطتين للنقل حتى تصلوا، وهذا غير مريح.

- أما أنا فلست مسافرة إلى هناك. لا يجوز لنا أن نذهب إلى القرية، - قالت مداعبة ابنها وهي تفكر بصورة قلقة. - نحن قد أخطأنا.

وضعت احتمالاً، أنها تزوجت رغماً عن إرادة ذويها، وهذا ما تأكد فيما بعد.

جهزت نفسها حتى تذهب إلى الطريق، ولكنني أقنعتها بأن تؤجل الخروج قليلاً، حتى لا تقف مع الطفل في البرد، وبإمكاني، أن أستوقف لها سيارة.

خرجتُ للشارع، وعلى روحي عبئ ثقيل، ولا أعلم لماذا؟ وحزنت واكتأبت لمجرد التفكير بأنها ستغادر مع هذا الطفل البريء إلى جهة مجهولة. وسأبقى وحيداً، كما كنت لفترة طويلة. لم أجد سيارة تنقلها إلى الجهة التي ترغب بها. ثم تركت واحدة تمر، دون أن أرفع يدي لها. ولقد خفت من تصرفي هذا، فلماذا أعمل هكذا؟ وهنا بدأت مرحلة جديدة من عذابي وترددي. كانت السيارات تمر، بينما كنت لا أرفع يدي لها، وكلما تركت واحدة، كنت أقول سأرفع يدي للقادمة، وهكذا استمرت السلسلة. وهنا خجلت من نفسي، أنها

تنتظر هناك. وأنا أتردد هنا. ولكني لم أقدر أن أفعل شيئاً مع نفسي. أسير في الشارع ذهاباً، وإياباً، أبحث عن حجة، أو سبب ما. فهذه سيارة قديمة، وهذه مكسور زجاجها، وهذا سائق سيئ، وهذا يبدو عليه أنه ثمل. وعندما كانت تمر السيارات وفيها ركاب إلى جانب السائق، كنت أفرح في داخلي. كصبي صغير. ولم أرغب أن يغادروا البيت، وكنت أقول: ليس الآن، بعد قليل، فليبقوا في البيت ولو خمس دقائق. «وإلى أين لها أن تسافر؟ - فكرت في نفسي - فإلى القرية لا يجوز لها، فهي قالت هذا، وإلى ريباتشي، ماذا ستعمل هناك مع الطفل؟ فسيموت في الشتاء القارس. فمن الأفضل أن تبقى هنا، وستعيش بعض الوقت، وستغير رأيها عندما ستفكر جيداً، وربما ستقرر العودة إلى زوجها، وربما هو يبحث عنها...».

إيه! أي عقاب هذا لي، فمن الأفضل لو أخرجتها إلى الشارع، وأرسلتها مع أول سيارة! أما الآن فقد بقيت في الشارع بين ذهاب وإياب ثلاث ساعات متواصلة، وأنا أراوح في مكاني بلا قرار، حتى كرهت نفسي. وفكرت أخيراً، إنني سأذهب إلى البيت، وأخرج معها، ونستوقف سيارة سوية، وإلا لن أتوصل إلى قرار. وهكذا ذهبت إلى البيت، فها هي حضرت نفسها ووقفت عند باب البيت، مستعدة للمغادرة. لقد ضجرت من الانتظار. خجلت من نفسي، نظرت إليها كصبي، قد ارتكب خطأً.

- هل مللت من الانتظار؟ - همست قائلاً بصوت منخفض، لا توجد سيارات حسب طريقك. لا، لم أقصد أنه لا يوجد سيارات نهائياً، ولكن لا توجد سيارة مناسبة، فسامحيني، ولا تفكري بسوء. من أجل الإله، ادخلي لدقيقة، أرجوك رجاء كبيراً!

استغربتْ، وحزنتْ لوضعي، وهي تنظر متأملة. فعادتْ إلى البيت صامتة.

- أنتم تتأسفون لوضعي، أليس كذلك؟ - سألت هي بتردد.

- لا، ليس لهذا السبب، فهل ستفهمين ما سأقوله لكِ... أخاف عليك، أن تكون الأمور سيئة بالنسبة لك، وللطفل أيضاً. فكيف، وأين ستعيشين؟

- سأعمل، وسأتعود على العمل.

- أين؟ - سألتها باهتمام. فأجابتني بتصميم:

- في أي مكان كان، سأعمل، ولن أعود لما كنت عليه، ولن أذهب إلى القرية. سأعمل وأعيش. التزمت الصمت، وعلى ماذا كان من الممكن لي أن أعترض؟ فهي الآن لم تفكر بأي شيء. ففي نفسها تتفجر براكين الغضب. والاعتزاز بالنفس. وهذه المشاعر كانت تدفعها إلى جهة مجهولة. فمن السهل القول - سأعمل وأعيش، لكن هذا لن يحصل مباشرة، وفي المقابل لا يمكنني كبح حريتها في المغادرة أيضاً. أخذ الطفل يمد نفسه نحوي، فأخذته على يدي، قبّلته، وأنا أفكر في قرارة نفسي: «يا لك من طفل رائع، يا طفلي البريء، الآن سأفترق عنك. لقد أصبحت عزيزاً عليَّ، كطفل قريب مني جداً...».

- هل لنا أن نذهب؟ - قالت هي بهدوء.

وقفنا، حملت الطفل، ولكني توقفت عند الباب. قائلاً بجدية:

- بالنسبة للعمل، يوجد عندنا فرصة للعمل، وبإمكانك أن تعيشي وتعملي. وهناك شقة موجودة، إنها ليست كبيرة.. أرجوك أن تبقي مؤقتاً، ولا تسرعي في اتخاذ القرار بالسفر، ففكري جدياً.

في بداية الأمر لم توافق. ولكن، بعد تفكير طويل وبعد جهد جهيد تمكنت من إقناعها.

وهكذا بقيت آسيل مع ابنها صمد عندنا في قسم الطرق.

أما الغرفة الصغيرة، التي لدينا في بهو الدار، فكانت باردة، وقررت أن تبقى آسيل مع ابنها في بيتي، أما أنا فقررت العيش في الملحق، وهناك كانت الغرفة تكفيني.

ومنذ تلك اللحظة أصبحت حياتي تختلف عن الحياة الروتينية السابقة وكأن شيئاً لم يتغير، فأنا كالسابق بقيت وحيداً، ولكن قد انبعث في عالمي الإنسان الجديد، وأصبحت روحي ذات حنان خاص ملأها الدفء بعد تجمدها فترة طويلة في حياتي الانفرادية. بالطبع كنت سابقاً بين الناس ومع مشاكلهم. ومن الممكن أن يعيش الإنسان مع الآخرين جنباً إلى جنب، ويعمل، ويصادق ويقوم بأعمال عامة، وأن يساعد الآخرين، وأن يتقبل منهم المساعدة، ولكن يوجد جانب ذو خصوصية في الحياة، وليس من الممكن الاستغناء عنه، أو تبديله بشيء آخر. لقد تعلقت بالطفل تعلقاً خاصاً. أذهب في جولة على الطرق معه، إذ ألبسه الثياب الدافئة، وألفه كما يجب حتى لا ينفذ البرد إليه. وأحمله خلال الطريق، أينما أذهب، وكنت أقضي كل وقتي الشاغر معه. لم أعد أتصور كيف كنت أعيش سابقاً. أما جيراني، فقد كانوا أناساً طيبين مع آسيل. وبالنسبة لصمد. فمن لا يحب الأطفال؟ أما آسيل فهي إنسانة طيبة للغاية، وحسنة الأخلاق، فانسجمت مع الجيران، ومع كل من يأتي إلى قسم الطرق، وأنا تعلقت بالطفل تعلقاً خاصاً، زد على ذلك، أنه ابن آسيل، ولماذا علي أن أخفي هذا؟ ولم أخف هذا على نفسي، مهما حاولت، فلقد أحببتها،

وأحببتها مباشرة على طول حياتي. وبكل حياتي الروحية. وكانت السنوات التي عشتها في وحدانيتي، وكل الحزن والمعاناة، وكل ما فقدته من راحة وسعادة، كل هذا قد انصب في حبي لها الآن. ولكني، لا أملك حق البوح بهذا مباشرة، فلقد انتظرته طويلاً، وانتظرت عودته، بغض النظر أنها لم تظهر هذه المشاعر. وغالباً ما كنت ألاحظ، عندما كنا نعمل سوية على الطريق، كيف كانت تستقبل وتودع بعينيها المنتظرتين كل سيارة تمر من جانبنا، وأحياناً كانت تأخذ ابنها، وتخرج إلى الشارع، وتجلس على حافة الطريق ساعات طويلة، عله يعود إليها، ولكنه لم يعد. فلا أعرف، من هو، وكيف شكله، وأنا لم أسأل عن هذا، وهي لم تتحدث بهذا مطلقاً.

مضت فترة من الزمن. كبر صمد تدريجياً. وأصبح طفلاً نشيطاً، جميلاً ولطيفاً! ولا أعلم، هل علمه أحد، أو بفعل حذاقته، أخذ يناديني «بابا»، وعندما يراني يقذف بنفسه ويتمسك برقبتي، ويضمني، قائلاً: "بابا! بابا!". أما آسيل فأخذت تبتسم، وهي تغوص في أفكارها وهي تنظر إليه. أما بالنسبة لي فكان الأمر مفرح ومؤلم في آنٍ واحد فأنا كنت سعيداً أن أكون أباً له. إن الواقع يملي نفسه ولا غريب في هذا الأمر...

في صيف هذه السنة، كنا نصلح الطريق في نقطة ما. وكانت السيارات تمر من جانبنا، وفجأة نادت آسيل أحد السائقين باسمه:

- إيه، جانتاي، توقف!

ابتعدت السيارة عن صف السيارات على اليمين وتوقفت. فهرعت آسيل إلى السائق. ولقد تحدثت إليه. لا أعلم عن ماذا، ولكني سمعت، كيف صرخت في وجهه:

- أنت تكذب! لا أصدق ما تقول! اغرب عن وجهي من هنا! اركب سيارتك واذهب من هنا فوراً!

غادرت السيارة بعيداً، أما آسيل فقد قطعت الطريق، وذهبت إلى البيت. يبدو أنها كانت تبكي. تركت العمل الذي بين يدي، واضطربت، وأخذت أفكر، من يكون هذا الرجل الذي تكلمت معه؟ وماذا قال لها؟ وساورني الشك، وخطرت لي أفكار مبعثرة، تبعث الغصة في قلبي. فلم أقدر على تحمّل هذا، فذهبت فوراً إلى البيت، أما آسيل فلم تخرج من غرفتها. وفي المساء، دخلت إليها، وسألتها:

- أين صمد؟ لقد اشتقت إليه كثيراً!

- هذا هو هنا، - أجابت آسيل بامتعاض.

- بابا! صرخ صمد وهو يمد جسمه نحوي، حملته بيدي عالياً، لعبت معه طويلاً، أما هي فكانت جالسة حزينة وصامتة. - فسألتها بهدوء:

- ماذا حدث يا آسيل؟

تنهدت آسيل بصعوبة جارحة.

- سأسافر أيها الإنسان المحترم، - أجابت هي. - ليس لأن الوضع هنا لا يلائمني. أو أنني أتعرض لسوء ما. فأنا شاكرة جداً لكم، ولكنني سأغادر إلى أي مكان تقودني إليه عيناي، وأنا لا أعرف إلى أين...

أرى، في واقع الأمر، أنه من الأفضل لي أن أسافر. ولم يبق لي إلا أن أقول الحقيقة.

- كما ترين، وكما تريدين يا آسيل. لا أملك الحق أن أمنعك من فعل ما ترغبين فيه. ولكن أنا أيضاً لن أعيش هنا. وعلي أن أغادر

أيضاً، فأنا سبق لي أن غادرت مكاناً خالياً وما علي أن أشرح لك هنا الأمر. فأنت تعرفين كل شيء يا آسيل. فإذا غادرت، سيصبح المكان هنا لا يختلف عن ذلك المكان في باامير، ففكري جدياً، يا آسيل... فإن قلبك سيأمرك بالعودة، أما أنا، فلن أكون عائقاً أمام مغادرتك، فأنت دائماً حرة طليقة.

وبعد هذه الكلمات، أخذت صمداً، وخرجت إلى الطريق، وسرت معه ذهاباً وإياباً فترة طويلة، ولكن الطفل البريء لم يكن في حالة وعي تخوله فهم كل شيء.

لم تغادرنا آسيل بعد، ولكن بماذا كانت تفكر، وماذا قررت؟ لقد نشف دمي خلال هذه الأيام، واسود وجهي.

وذات يوم، عدت في منتصف النهار، ودخلت إلى بهو المنزل، وفجأة تظهر أمامي آسيل، وهي تقف أمام صمد، الذي يحاول السير على قدميه، بينما كانت تمسكه أمه بحنان ومحبة خائفة من أن يقع، وقالت وهي مبتسمة، فرحة:

- انظر أيها الإنسان المحترم، هذا هو ابنك أخذ يمشي، انظر! كيف قالت هي؟ ابنك! قذفت الرفش، وجلست القرفصاء، وأخذت أناديه حتى يسير نحوي:

- تعال، تعال، تعال يا صمد، يا قعودي الصغير! تعال إليَّ! سر على قدميك فوق هذه الأرض، سر بشجاعة!

مدّ صمد يديه إلى الأمام نحوي.

- بابا! - أخذ ينقل قدميه واحدة بعد الأخرى، ثم ركض نحوي، فأمسكت به، وهو يسرع، ورفعته عالياً فوق رأسي، ثم ضممته إلى صدري.

- آسيل! - قلت لها - تعالي نقيم غداً عيداً «قص الخيط الذي يعيق مسير الأطفال»، فجهزي عروة من صوف أبيض وأسود.

- حسناً يا محترم! - ضحكت هي فرحة.

- نعم، نعم، بشكل أكيد من صوف أبيض وأسود...

امتطيت صهوة الحصان، وأخذت أعدو مسرعاً إلى أصدقائي الرعاة، وجلبت من عندهم الكوميس [1] ولحم الخراف طازج، وفي اليوم التالي عزمنا الجيران إلى عيد بداية مشي الأطفال.

وضعت الطفل على الأرض، وربطت رجليه بالعروة البيضاء والسوداء، وكأنه رجل كهل مكبل. وإلى جانبه وضعت مقصاً، وقلت للأولاد، الذين يقفون في نهاية ساحة المنزل:

- من يسبق منكم، ويمسك المقص، ويقص العروة سيحصل على هدية قيمة، وللآخرين ستكون هدايا حسب الدور. ثم أمرتهم: انطلقوا أيها الشباب! - وأشرت بيدي.

انطلق الأطفال، وهم يصرخون فرحين، كما في السباقات.

عندما تم قص العروة، وتم تحرير رجليه، أوقفت صمداً، وقلت له:

- هيا، يا بني، اركض الآن! خذوه أيها الأولاد معكم!

أخذ الأطفال صمداً من يديه، وأنا قلت في إثره، دون أن أتجه إلى أحد كان:

- أيها الناس! إن مهري الصغير أخذ يركض في الأرض! عسى أن يكبر ويصبح فارساً سريع العدو! ركض صمد خلف الأطفال، ثم

---

[1] الكوميس هو لبن رائب مصنوع من حليب الخيول، إذ ما زال سكان آسيا الوسطى يشربون حليب الخيل، ويأكلون لحومها، وخاصة في كازخستان وأوزبكستان وطاجكستان وغيرها. - المترجم.

التفت: «بابا!» - ووقع. أما أنا وآسيل فركضنا وبنفس السرعة إليه، وعندما رفعته عن الأرض، قالت لي آسيل ولأول مرة:

- يا قريبي العزيز!

... وهكذا أصبحنا زوجاً وزوجة.

في الشتاء قمنا بزيارة لأهل آسيل مع ابننا صمد في القرية، لقد كانوا، ولفترة طويلة غير راضين عن آسيل. وكان علينا مع آسيل أن نجيب عن كل الأسئلة والملاحظات، ولقد حدثتهم بالحقيقة وكيف كان الأمر. وبعد هذا سامحوا آسيل، من أجل الحفيد سامحوها، ومن أجل مستقبلنا.

مضى الوقت بسرعة، دون أن نلحظه، وأصبح عمر صمد خمس سنوات، ويسود بيني وبين آسيل التفاهم والمودة، ولكننا لم نمس قضية واحدة، ولم نتذكرها نهائياً، وكأنه يوجد بيننا اتفاق صامت: فذاك الإنسان بالنسبة لنا غير موجود...

ولكن في الحياة تحدث بعض الأمور خارجاً عن إرادتك، وليس كما ترغب! لقد ظهر عندنا هنا منذ فترة قريبة...

وقعت حادثة على الطريق، فهرعت راكضاً مع جاري ومساعدي في ليلة مظلمة، حتى نعرف ما حدث، وعندما وصلنا، وجدنا سيارة شحن قد اصطدمت في الأعمدة على الطريق.

كان السائق مهشماً، وفاقداً للوعي، زد على ذلك، أنه كان ثملاً. لقد عرفته، ولكني لم أتذكر اسمه، فقد غاب عن ذاكرتي تماماً. لقد خلّصنا هذا الشخص ذات يوم من حادث سيئ. لقد تعطلت سيارتنا، وقام بجرنا إلى المعبر الجبلي. وهذه لم تكن مهمة سهلة، أن تجر سيارة شحن سيارة أخرى عبر الجبال الصاعدة والهابطة والملتوية.

ولم يسبق أن قامت سيارة ما بجر قاطرتها، ومقطورة خلفها، وكان هذا الرجل هو الأول، الذي نفذ هذه المهمة بنجاح، وهو شاب شجاع وذكي وعنيد، وأوصلنا إلى المكان بأمان. ولقد أعجبني آنذاك جداً، وملأ روحي. وبعد فترة من هذا، قام أحد السائقين برحلة عبر المضيق مع مقطورة، ولم يبق له إلا القليل حتى يصل، وكما يبدو، أن شيئاً ما أزعجه فترك السائق المقطورة في حفرة، وعاد أدراجه. وفكرت آنذاك، أليس هو نفسه. ذلك الرجل العنيد، قد جرب مرة ثانية. ولقد أسفت أنه لم يتمكن من تحقيق مهمته. ولكن، وفيما بعد أخذت السيارات تجر مقطورات خلفها، عبر المضيق. لقد أجرى الشباب بعض التعديلات ونجحوا في ذلك، وحققوا نجاحاً مفيداً، وأصبحت الفائدة مزدوجة.

وأقول بصراحة، لم أعرف منذ اللحظة الأولى، أن هذا الإنسان المدمى هو ذلك الشاب، الذي غادرته آسيل. ولكني، ولو عرفته، لكنت تصرفت كما تصرفت معه فعلاً. لقد أخذته معي إلى البيت، وفوراً أصبح كل شيء واضحاً. ففي هذه اللحظة كانت آسيل تحمل حزمة حطب، وعندما رأته، وقعت الأعواد وتبعثرت فوق الأرض. ولكن لم يغير كل منا نحن الاثنين موقفه، وكأننا التقينا لأول مرة. زد على ذلك، كان عليّ أن أتمالك أعصابي، وأحافظ على اتزاني، حتى لا يغلط أحد منا في قول كلمة غير مدروسة أو إشارة يُساء فهمها من قبله. وكان عليّ أن أساعدهما، إذا ما أرادا أن يتفاهما، الواحد مع الآخر، فأنا هنا كنت عاجزاً عن أي حل. وهكذا قررا: كان بينهما ما كان في الماضي من حلو ومن مر، وبينهم الآن ابنهما، الذي كنت أنام معه في سرير واحد، وأنا أضمه إلى صدري وألاطفه.

في هذه الليلة لم ينم أحد منا، وكل واحد كان يفكر بنفسه، وماذا يعمل، وأنا كنت أفكر بما يهمني: ربما تقرر آسيل أن تذهب مع ابنها، وهذا حقها القانوني. فلتتصرف كما يملي عليها عقلها وقلبها. أما، أنا.. فماذا عليّ أن أقول؟ الحديث هنا لا يجري عني، ولا يرتبط الأمر بي. وعليّ أن لا أتدخل في أمرهم... وهو، الآن، هنا في المنطقة، يسافر ذهاباً وإياباً على هذا الطريق من جانبنا، فأين كان هو كل هذه السنوات، وماذا عمل حتى يعيد اللحمة إلى أسرته؟ ولكن هذا هو شأنهما وأمر خاص بهما...

☆☆☆

عاد بايتيمير من الجولة. كان المساء قد حلّ. بينما بدا الغروب الربيعي داكناً نسبياً واختلط مع الأفق البعيد تحت قبة السماء فوق ذرا جبال تيان - شان الجليدية، بينما كانت السيارات تتعاقب على الطريق بضجيجها الدائم. أما بايتيمير فقد عاد للحديث بعد فترة من التفكير الصامت قائلاً:

- هذه هي الحياة، وهكذا يتطلب الأمر أحياناً. فعليَّ أن لا أسافر إلى مكان ما بعيداً عن هذا البيت. فإذا فكرت آسيل أن تغادر، فليكن الرأي لها ولتصارحني بقرارها. عندئذٍ سأبلغها آخر وصية لابني صمد. فهو بالنسبة لي أقرب المقربين، مهما كثروا أو كانوا، وليس لي الحق أن آخذه منهما... ولذلك لن أسافر إلى أي مكان، وخاصة إلى بامير. وهذا الحديث بيننا ليس للنشر في الجريدة، فنحن نتحدث وبكل بساطة كإنسان لإنسان...

بدلاً عن الخاتمة

لقد افترقنا مع إلياس في مدينة أوش، فهو سافر إلى باماير، وأنا ذهبت للقيام ببعض أعمالي.

- عندما سأعود، سأبحث عن علي بيك، وأبدأ حياة جديدة!

- هكذا كان يحلم إلياس. - ولا تفكروا أنني إنسان تائه، لا جدوى منه، أو إنني سأمضي بعض الوقت، ثم سأتزوج، وسيكون عندي بيت، وأسرة وأولاد. - وبكلمة، كما يعيش الناس. إنني أملك الكثير من الأصدقاء والرفاق، وسيكثر عددهم، ولكن لم يكن لديّ شخص آخر، فقدته إلى الأبد وحتى آخر أيام حياتي، وسأبقى أذكره حتى آخر أنفاسي. إنها آسيل، وسأذكر كل شيء رائع وجميل كان بيننا.

كان إلياس يفكر مطأطئ الرأس، وأضاف بعد صمت أليم:

- في ليلة السفر، ذهبت إلى البحيرة، إلى تلك الربوة العالية فوق إيسك كول. لقد ودعت جبال تيان شان، وودعت البحيرة الجميلة إيسك كول، أغنيتي، التي لم أكملها! لو كان باستطاعتي لحملتك معي، بكل شواطئك الصفراء وزرقتك الرائعة، لكن هذا شيء مستحيل. كما أنه، ليس بإمكاني أن أحتفظ معي بحب أحب إنسان في الوجود. وداعاً يا آسيل! وداعاً يا حورتي في منديل أحمر! وداعاً، يا حبيبتي! كوني سعيدة إلى الأبد!...

⁂

صدر للمؤلف والمترجم
الدكتور ماجد علاء الدين

أ. ترجمة إلى اللغة الروسية عن العربية:

1. "عائد إلى حيفا" رواية من تأليف غسان كنفاني، موسكو 1974. وأعيدت طباعتها مرتين، وصدرت على حلقات في مجلة "آسيا وأفريقيا اليوم" بمئات ألاف النسخ.
2. مجموعة دراسات ومقالات عن الأدب العربي منشورة في المجلات والصحف الروسية بين أعوام 1973- 1980.

ب. ترجمة إلى العربية عن الروسية في مجالات السياسة والاقتصاد وعلم الاجتماع:

1. "أكتوبر وحركة التحرر الوطني"، مجموعة باحثين، دار ناؤوكا، موسكو 1975.
2. "كمب ديفيد سياسة مصيرها الفشل"، تأليف أ. زاخاروف - أ. فومين، دمشق ط1 1984- ط2 1985.
3. "البلدان النامية والعلاقات الاقتصادية الخارجية"، تأليف بورتيانيكوف، دمشق 1985.
4. "الأخوة كينيدي"، تأليف أ. غروميكو، دمشق 1986.
5. "مذكرات عن الانقلاب العسكري الأسباب والنتائج"، ميخائيل غورباتشوف، دمشق 1992.
6. "القتلة على الرمال البيضاء"، أناتولي آغارشيف، دمشق 2000.
7. "ستالينغراد ملحمة العصر"، ف. تشويكوف، دمشق 1995.

ج. روايات وقصص قصيرة:

1. "النطع" رواية من تأليف جنكيز أيتماتوف، دمشق 1984.
2. "الأقصوصة السوفييتية المعاصرة"، دراسة وقصص مختارة، دمشق ط1 1983، ط2 1984، ط3 1985.
3. "محاكمة سقراط"، تأليف يوري فانكين، دمشق 2002.
4. "أحلام إيفان المأساوية"، رواية من تأليف الدكتور ماجد علاء الدين، دمشق .2002
5. "بؤس الشيطان"، بريم ستوكر، ترجمة مشتركة مع نايف أبو كرم، دمشق 2002.
6. "الواقعية في الأدبين الروسي والعربي"، دراسة أدبية من تأليف الدكتور ماجد علاء الدين، دمشق ط1 1984، ط2 2015.
7. "الأرض الأم"، تأليف جنكيز أيتماتوف، دمشق 2016.
8. "حورتي في منديل أحمر"، تأليف جنكيز أيتماتوف، دمشق 2016.
9. "السفينة البيضاء"، تأليف جنكيز أيتماتوف، دمشق 2016.
10. "جميلة، عين الجمل، وجهاً لوجه"، تأليف جنكيز أيتماتوف، دمشق 2016.

د. شعر مترجم وقصص مختارة عن الروسية إلى العربية:

1. الضفدعة السائحة، غارشين، دار التقدم، موسكو 1975.
2. "مختارات من الشعر الروسي" (دراسات وقصائد مختارة)، دمشق 1984.
3. مغامرات بوراتينو، تأليف ألكسي تولستوي، دمشق 1984.
4. "المرآة والقرد"، تأليف أ. كريلوف، دمشق 1985.
5. "الوقواق والديك"، تأليف أ. كريلوف، دمشق 1985.

6. "الذئب والثعلب"، تأليف أ. كريلوف، دمشق 1985.
7. "تيمور وفريقة"، قصة للناشئة، أ. غايدار، دمشق 1986.
8. "ملحمة الزمن" ديوان شعري، أناتولي سافرونوف، دمشق 1986.
9. "رموز مقدسة"، مجموعة شعرية، تأليف ن. ريريخ، دمشق 1993.
10. "الروح الشريرة"، تأليف ميخائيل ليرمنتوف، دمشق 2002.

هـ. ثقافة عامة:

1. "صفحات مجهولة من حياة تولستوي"، ترجمة إلى العربية، دمشق 1986.
2. "قصص من حياة دوستويفسكي"، ترجمة إلى العربية، دمشق 1985.
3. "ذكراه في القلب والدة رائد الفضاء الأول تروي قصته"، آنا غاغارين، ترجمة إلى العربية، دمشق 1987.
4. "دليل السائح الروسي"، تأليف الدكتور ماجد علاء الدين، دمشق 1992.
5. "الأجسام الطائرة المجهولة"، أ. كوزوفكين، ترجمة إلى العربية، دمشق 1994.
6. "سويداء سورية (موسوعة شاملة عن جبل العرب)"، مشاركة مع مجموعة من المؤلفين، دمشق 1995.

و. قيد الطباعة:

1. "بناة الأهرامات ما زالوا شباباً" - رواية.
2. "مئة مفكر عظيم" في ثلاثة أجزاء، ترجمة عن الروسية.
3. دراسات في النقد الأدبي وعلم اللغة الروسية وآدابها.
4. سيرة حياة عامة...

الفهرس

بدلاً عن المقدمة 5
قصة السائق 15
حديث مشرف الطريق 141
بدلاً عن الخاتمة 163
الفهرس 164